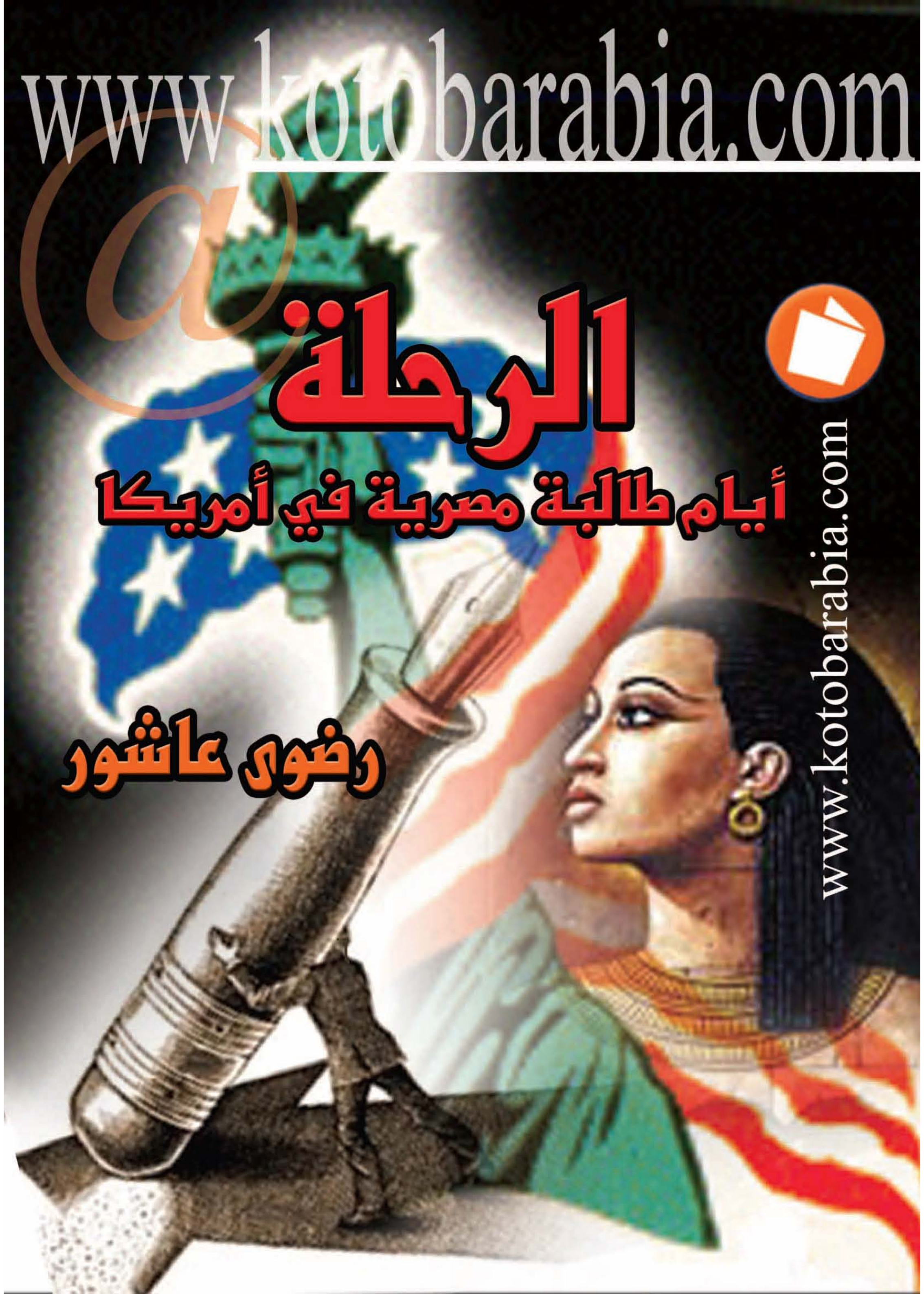

www.kotobarabia.com
الرحلة
أيام طالبة مصرية في أمريكا
رضوى عاشور
www.kotobarabia.com

رَضْوَى عَاشُور

الرحلة

أيام طالبة مصرية في أمريكا

فهرس

١

غادرت القاهرة فجر ٣٠ أغسطس ١٩٧٣. قبلت مودعيّ ودخلت إلى المنطقة الجمركية حاملة حقيبة زرقاء كبيرة بها ملابسي وبعض الكتب، وحقيبة يد صغيرة أودعتها جواز سفري المصري الأخضر وبطاقة الطائرة ومحفظة جلدية بها نقود وبضع صور عائلية. صورة صغيرة رسمها صلاح جاهين وصارت أغنية نردد فيها مع كورس الأطفال المصاحب للمغني « صورة، صورة، صورة، / كلنا كده عاوزين صورة / صوره للشعب الفرحان / تحت الراية المنصورة! » ولما كان السؤال قائما – ساعتها كما الآن – إن كان من الممكن أن نجلس في هذا الجيل أمام الزمان لكي يلتقط لنا صورة تحت الراية المنصورة، فلقد أبقيت هذه الصورة المغناة جميلة ومصقولة مع تلك الأخرى التي استلمناها عقب حرب الأيام الستة، محروقة كأنها تعكس ما أصابنا من تفحم في الحريق. ومع الصورتين احتفظت بصورة ثالثة، عائلية أيضا، يتصدرها أبي حاضرا وعنيدا، موزعا بين رغبته في أن يطلقني في الأرض امتدادا لفورة

حياة من صلبه ومخاوف مسلم ريفي الجذور يريد للبنت الستر، وأمي في الخلفية، وأخواتي مقبلون، وأنا أتساءل.

ولم أكن أحمل معي صورة ذلك الشيخ المعمم ذي الوجه الوسيم، ولكن المؤكد أنه كان هناك في مكان ما من وعيي لو أنني توقفت لأدقق. كرفاعة كنت في طريقي إلى بلاد « بعيدة عنا غاية الابتعاد » لتحصيل المعارف، ولكنني لم أكن مثله ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئا مما هو مقبل عليه، ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحوا وعادوا مدلهين في عشق الأنوار الإمبريالية.

أعادت لي الموظفة الجواز وبطاقة السفر فلوحت لمودعيّ مرة أخيرة واتجهت إلى قاعة المسافرين حيث جلست على مقعد جلدي أسود كبير في انتظار الإعلان عن موعد الإقلاع، وألم ملعون في سني لازمني طوال الساعات الأخيرة يزداد إلحاحا ويتحول إلى صداع.

في أي عام التقطت لنا هذه الصورة العائلية، في عام ١٩٦٢ أم في مطلع العام التالي؟ أذكر أننا جلسنا أمام المصور في الأسبوع نفسه الذي شاهدت فيه جميلة بو حريد في جامعة القاهرة. وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى

الحرم الجامعي، فاجأتني أنوار قاعة الاحتفالات، بدت لي في تلألئها كعروس مجلوة. ذهبنا في أتوبيس المدرسة برفقة معلمتين ثم طلعت جميلة علينا، امرأة نحيلة وصغيرة في ثوب بسيط على خلفية من أخضر وأبيض يلتقيان في خط يعلوه هلال أحمر، علم الجزائر خلفها، ونحن نهتف، والمرأة الصغيرة تتحدث ويأتيني حديثها كعلامة على طريق السلامة.

« هل أنصفت في قراري بالسفر؟ » هذا الألم الملعون بسني لا أعرف كيف أتخلص منه. يعلنون عن قيام الرحلة. أجلس في الطائرة وأربط الحزام استعدادا للإقلاع. أنظر من النافذة إلى البنفسج الذي يغشى السماء والأرض وأفكر أنه في تلك الساعة البنفسجية نفسها قبل عام وسبعة أشهر، كانت قوات الأمن تقتاد آلاف الطلاب المعتصمين من داخل قاعة الاحتفالات بالجامعة إلى الاعتقال. خرجوا في صفوف منتظمة يغنون « بلادي بلادي »، وفي ساعة كهذه أيضا من يوم آخر كنا نقف، شابان وأنا، أمام الموظف المسئول بمكتب البريد المركزي بشارع عدلي لكي نرسل برقيات إلى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء احتجاجا على اعتقال الطلاب، باسم لجنة للكتّاب والفنانين المصريين.

هذا البنفسج في الفجر ناعم وحزين. ما الذي يحملني على السفر؟ أحدق من النافذة فيتراءى لي فريد جميلا يبتسم ابتسامة مشجعة وعيناه خائفتان. يشتد الألم في أسناني وتقلع الطائرة.

- طلاب الجامعة ينتظرون للمحطة القادمة.

أعلن السائق وهو يوشك على الوقوف في محطة البلدة. نزل الركاب جميعا عداي، وشاب يجلس بجوار النافذة في الجناح المقابل. وحين توقف الأتوبيس ثانية في محطته الأخيرة داخل الحرم الجامعي نزلت منه والشاب من ورائي، ثم رأيت فتاة ذات حاجبين كثيفين لا بد أنها كانت تجلس خلفي لأني لم ألحظها قبل ذلك. سلمنا السائق حقائبنا ورحت أجول ببصري في المكان لعلي أهتدي إلى الخطوة التالية. كان الشاب والفتاة قد بدآ يتبادلان الحديث بلغة أوربية لا أعرفها، اقتربت منهما وسألتهما بالإنجليزية إن كانا طالبين جديدين، ولما ردا بالإيجاب حملت حقيبتي وسرت بجوارهما. وضعنا أمتعتنا في مقر اتحاد الطلاب ثم اتجهنا إلى مبنى الإدارة الذي وصفوه لنا. نسينا أن نتعارف، فكرت، أبطأت خطواتي، قلت:

- أنا من مصر، اسمي رضوى عاشور.

كانت الفتاة بولندية، وقال الشاب إنه إسرائيلي. فاجأني الأمر ولم أقل شيئا. وصلنا إلى مكتب الطلبة الأجانب فجلست على كرسي وحدي في الطرف المقابل. حين انتهت الفتاة والشاب من الحديث مع مسئول المكتب توجهت إليه لأسأله، قال مشيرا إليهما:

- إنهما ذاهبان إلى برينس هاوس، مسكن طلاب الدراسات العليا. لقد وصفت لهما الطريق، وسوف ألحق بكم هناك بعد الظهر.

وأعطاني ملفا به خريطة للجامعة وعدد من الكتيبات بها معلومات عن بلدة أمهرست وجامعة ماساشوستس والجامعات المجاورة لها.

عدنا إلى مبنى اتحاد الطلاب لأخذ أمتعتنا، ثم توجهنا للبحث عن برينس هاوس. سرت أتشاغل بالحقيبة وثقلها، يفصلني عن تريزا البولندية التي راحت تثرثر مع الشاب مسافة تكفي لشخصين أو ثلاثة. وأخيرا وجدنا البيت ولكننا أخذنا ندور حوله لا نعرف من أين الدخول إليه، وكلما ظننا أننا عثرنا على المدخل وجدنا بابا مغلقا. كنا في اليوم الأخير

من شهر أغسطس والجو حار رطب وخانق، رحت أتصبب عرقا وأنقل حقيبة السفر الثقيلة من يد لأخرى. وأخيرا اهتدينا إلى المدخل.

قالت مديرة البيت أن ليس لي مكان لأنني لـم أرسـل طلبا مسبقا. وإن علي أن أتدبر أمري لليلة أو ليلتين في مكان آخر. وحين وصول مسئول مكتب الطلبة الأجانب حملني في سيارته إلى بيت آخر من بيوت الطلاب لإيجاد حجرة أقضي بها الليلة. كان الشاب دون الثلاثين، ودودا ومهـذبا، شـديد العناية بملبسه حتى أنه بدا كموظف بريطاني يعمـل بـإدارة إحدى المستعمرات الإمبراطورية في بدايات القرن. شـعره الأشقر الناعم مفروق من الجانب بعناية، متـورد الـوجنتين لامع الحذاء، يلبس رابطة عنق وسترة، ويتحـدث بصـوت نحاسي بطيء، مؤكدا على مخارج الألفاظ كأنه يقدم برنامجا إذاعيا لتعليم اللغة الإنجليزية. كانت هيئته غريبة بين الطلاب الذي يلبسون الشورت والبنطلونات الجينز الكالحة. ويطلقون شعورهم بلا عناية وتغلب عليهم الهيئة الهيبية. سألته لقطـع الصمت:

- هل زرت مصر أو أيا من البلدان المجاورة؟

- لا، ولكني قضيت عدة سنوات خدمة في الهند الصينية.

لم أقتنع في حياتي بأن السكوت من ذهب كما اقتنعت تلك اللحظة. وبدا لي أنني لو فتحت فمي مرة أخرى فسوف يسترسل ليقول لي إنه كان مجندا في فيتنام حاملا لواء الديمقراطية في أدغال آسيا. أول القصيدة كفر. أصطبح بإسرائيلي وأتمسى بهذا الشاب اللامع الذي قضى « عدة سنوات خدمة في الهند الصينية ».. ما الذي أتى بي إلى هنا؟

كان لقائي الأول برئيس قسم الدراسات الأفرو – أمريكية الذي كنت قد تراسلت معه بشأن مشروعي الدراسي طريفا وقد أحاطت به كل ملابسات المفارقة المضحكة. لم أكن قد أتيت إلى الولايات المتحدة رغبة في الدراسة فيها عموما ولكن لاهتمامي بموضوع بعينه هو الأدب الأمريكي الأسود الذي أردت أن أقدم فيه رسالتي للدكتوراه. وفي القاهرة أشارت علي السيدة شيرلي جراهام ديبوا الكاتبة الأمريكية السوداء وأرملة الزعيم الكبير الذي تحمل اسمه أن أتقدم بطلب الالتحاق بهذا القسم بالذات لثقتها في التوجه التحرري لإدارته وهيئة تدريسه. وحملت لي مدام ديبوا بنفسها استمارات الجامعة وزكتني للحصول على منحة من

القسم، قائلة إنني باحثة مصرية جادة أعمل بالتـــدريس فـــي جامعة عين شمس، وإنني كاتبة تقدمية. وقالت لي صـــديقتي التي تجاوزت الستين إن رئيس القسم صديقها وإنني ســـوف أسعد بلقائه لتميزه الإنساني والعلمي.

هكذا رحت أفكر وأنا جالسة في انتظار صديق صديقتي العجوز إذا ما كان الرجل مثلها علـــى مشـــارف الســـبعين، وأتساءل إن كان هناك سن للتقاعد لأساتذة الجامعة في هـــذا البلد.

- ها هو قد جاء.

قال وكيل القسم الذي كنت أنتظر بغرفته. قدمه لي ثم:

- السيدة رضوى عاشور.

مددت يدي لمصافحة شاب فارع الطول له لحية كلحيـــة هوشي منه، شعره منفوش في اتساق على الطريقة الأفـــرو، يلبس قميصا إفريقيا واسعا ذا ألوان زاهية، يتدلى من رقبتـــه عقد من العاج في نهايته قناع إفريقي صغير من العاج أيضا. بشرته قمحية، مثلي، وله عينان واسعتان برمـــوش طويلـــة يميل إلى إغلاقهما وهو يتحدث كأنه لا يريد أن يرى – أثناء حديثه – إلا ما في رأسه.

ولا أدري إن كانت غربتي أمام هيئـــة الرجـــل كانـــت أساسا بسبب توقعي السابق لأســـتاذ أبـــيض الشـــعر علـــى الأرجح، مثقل بحمل السنوات، ربما يميل للامتلاء، فيبدو أقل طولا مما هو، أم أنها كانت بسبب هيئته غير التقليدية وغير المتوقعة في سياق الجامعة التقليدي. ما الذي دفع بـــي إلـــى التحدث إليه هكذا في صراحة فاجأتني؟ هـــل هـــي غربتـــي فاضت بي أمام هيئة استغربتها أم أن شيئا لمحته في عينـــي الرجل وحديثه أشعرني بالألفة؟ قلت له إنني بـــدأت أشـــعر بالخوف وإنني قد أغالب غربتي وأستمر وقد أحزم أمتعتـــي وأذهب، لا أدري، قلت إنني أريد دراســـة الأدب الأفـــرو – أمريكي كجزء من انشغالي بعلاقـــة الأدب بواقـــع النضـــال الشعبي، وإنني أدرّس في قسم للأدب الإنجليزي، ولكنـــي لا أريد التورط في بذل سنوات من العمر والجهد في دراسة لا تدخل في نطاق همومي الملحة والقضـــايا الأكثـــر إلحاحـــا لواقعنا الثقافي.

استمع لي ولم يطل في حديثه، واقترح خطوات عمليـــة محددة كالالتقاء بمدير الدراسات العليـــا فـــي قســـم اللغـــة الإنجليزية (باعتباره القسم الذي ســـوف يمنحنـــي الدرجـــة

العلمية) وزيارة أستاذ بعينه اقترح أن يكون المشرف على دراستي ثم قال:

- أقترح أيضا أن تضيفي إلى المقررات التي ستختارينها لهذا الفصل الدراسي مقرر الأدب الإفريقي. فهنا الروائي النيجيري شينوا آشيبي، وأعتقد أن الاستماع لمحاضرته فرصة لا تفوَّت.

تركت القسم وقد توارى شعوري بالقلق والغربة خلف طرافة الموقف والفرق بين صورتي للأستاذ والشاب الذي التقيت به. كتبت لمريد رسالة عن ذلك وكنت أضحك. ولم يدر ساعتها بخلدي أن الموقف كان يحمل مفارقة أخرى أو أنني قد أكون أدهشت الرجل بقدر ما أدهشني، ألم تقل السيدة العجوز إنني صديقتها؟ والأوراق الرسمية ألا تقول إنني حاصلة على الماجستير ولي خبرة ست سنوات في التدريس بالجامعة؟ ومن جلست في مواجهته – أنا في خريف عام ١٩٧٣ – فتاة صغيرة الحجم، يؤكد وجهها المستدير ذو الملامح المتناسقة، وشعرها القصير جدا كشعر صبي، وبساطة ملبسها، وهيئتها ككل أنها دون العشرين!

راح مايكل يقود سيارته الحمراء ذات السقف المفتوح باندفاع لا يحدد سرعته إلا تعرّج السكك الجبلية ومنحنياتها المفاجئة. بضع كلمات في أول الطريق تبادلناها ثم ساد الصمت. غلبنا المكان ربما باخضراره المطلق رغم علامات واهية لخريف على الأبواب، أصفر وبرتقالي وأحمر كلها تضيع في الأخضر الكثيف الكثير. فأعود إلى النهر الذي ولدت في بيت يطل عليه، والوادي الممتد في الشمال بخير النهر الأخضر بكدح فلاحين نحاف تنحني ظهورهم لحرث الأرض وبذرها، والوادي الممتد في الجنوب، تداهمه الصحراء، تتحرش به، وتطغى عليه حتى يصير شريطا ضيقا من الخضرة المحاصرة. وأنا أجلس منكمشة. هل هي الغربة في المكان أم صعوبة التواصل مع هذا الشاب الجامايكي الذي يبدو وهو يقود سيارته مستغرقا في بعيد أجهله؟ كنا في طريقنا إلى بلدة مجاورة لأمهرست للالتقاء بالأستاذ الذي اقترح مايكل أن يكون مشرفا على دراستي.

هذه المرة لم يفاجئني الأستاذ، رجل على مشارف الستين أبيض الشعر، تكشف حركته رغم نشاطه عن ثقل الجسد المحمل بعبء السنوات. وبدا لي الأستاذ أمريكيا

تماما في سترته ذات المربعات والسلسلة الفضية التي تحيط بمعصمه والحذاء الأبيض المطاط الذي ينتعله. جلسنا في شرفة فسيحة لا يفصلها عن حرش النباتات البرية المحيطة إلا حاجز من السلك المخرم يمتد من سور الشرفة الخشبي إلى سقفها، تحدثنا عن مشروعي الدراسي بلا إفاضة وقبل أن نغادر، ربت الأستاذ الأمريكي العجوز على كتفي قائلا: « حاولي أن تغالبي شعورك بالغربة! » هل تورد وجهي حياء؟ المؤكد أن كلمات الأستاذ فاجأتني! وأحرجتني التفاته لغربتي ولم أكد قد أشرت لذلك.

ركبنا السيارة عائدين إلى أمهرست. في الطريق دعاني مايكل لتناول العشاء فوافقت. قال وهو يوقف سيارته أمام محل لبيع الأسماك.

- هل تحبي الاستاكوزا؟
- لا أعرفها!

ذهب ثم عاد بعد دقائق وبيده كيس كبير من الورق البني أحدث به بعض الثقوب، نظرت داخل الكيس فوجدت حيوانين بحريين يحركان أرجلهما الطويلة التي تنتهي بخطافات ضخمة نسبيا. قال مايكل وهو يبتسم: « لا تبتئسي

هكذا، سأطهو لك شيئا آخر!» توقفنا ثانية في أمهرست أمـــام أحد المحلات وابتعنا لحما وخبزا وبعض الخضراوات.

ثم تجاوزنا أمهرست ورحنا نصعد إلى التلال الواقعــة إلى شمال البلدة عبر سكك جبلية ملتوية بين أشجار ســامقة تحجب بأفرعها المتشابكة الكثيفة الخضراء ضوء الشــمس. أخيرا أوقف مايكل سيارته قائلا: « وصلنا! ».

بدا لي المكان وسط الخضرة الغائمة في الغسق الوشيك جميلا ومختلفا. وهذا السكون الذي أنصـــت لــه وأســتجيب غريب علي كأنه خلق جديد. فتح مايكل الباب فــدخلنا إلـــى مطبخ فسيح، أضاء النور، وغسل يديه ثم ملأ آنيتين كبيرتين بالماء ووضعهما على النار ثم راح يتبل اللحم قبل أن يضعه في الفرن. ودخلت أنا إلى الحجرة المجاورة، حجرة للجلوس بها أريكة وعدة كراس ومائدة صغيرة. على أحد الجــدران صورة فوتوغرافية مكبرة بالأبيض والأسود لغيفارا يركــب حصانا بين الأحراش ويتألق وجهه كأنه النجمة التي تــزين قبعته الداكنة، وعلى الجدار المجاور مجموعة من الأســلحة الصغيرة: بندقية ومسدسان معلقة بشكل متناســق وجميــل، وبمحاذاة الحائط المواجه لوحان من الخشب صفَّت عليهمــا

الكتب يرتفعان عن الأرض بمقدار طول الأحجار التي يرتكزان إليها. رحت أنظر إلى عناوين الكتب وأتصفح البعض منها لكي أدفع بعيدا ذلك السؤال الذي راح يلح علي. كان الصمت في المكان مطبقا يؤكد عزلة هذا البيت الجبلي النائي ويثير الوحشة في نفسي أسأل: « ما الذي أتى بي إلى هنا؟ » هل هو افتقاد الغريبة للأمان أم هي مخاوف مبهمة ترسخت في النفس عن الاثنين اللذين ثالثهما هو الشيطان؟ عدت إلى المطبخ فوجدت مايكل وقد وضع الاستكاوزا هكذا كاملة وحية في الماء المغلي بالآنية الأولى ووضع في الثانية أربعة أكواز من الذرة يسلقها قال:

- ماذا تشربين؟

- عصير.

- ألا تشربين شيئا آخر؟

- شكرا، فقط عصير.

جلسنا نأكل في صمت. مايكل في مواجهتي ووراءه على الحائط صورة « التشي » على حصانه بين الأدغال. فما الذي أتى إلي بنجيب سرور حاضرا في المكان كأنه ثالثنا، رمادي الوجه كما رأيته قبل مغادرتي للقاهرة، وقد

أصابه عرج خفيف وإن كان ملحوظا بأحد ساقيه؟ وبلا نية مسبقة رحت أحدث مايكل عن شخص عبد الناصر، وحرب الأيام الستة، ومقاطعة أهلي لزواجي على غير إرادتهم، واعتصامات الطلاب، وذلك الغزل الفريد الذي يغنيه الشيخ إمام للإسكندرية والذي يؤنسني ترديد بيتين بالذات منه:

« كأني جوّا المظاهرة طالب/ هتف باسمك ومات معيدا! »

لا بد أنني تحدثت في مواضيع متعددة، أم كان الموضوع واحدا؟ من المؤكد أنني تحدثت طويلا وإلا فكيف استطعت أن أقول كل الذي قلت عن أوجاع الجيل الذي اندفع من الأناشيد الحماسية إلى أتون الأيام الستة والمذابح والرماد؟

وحين ركبنا السيارة لكي يعيدني مايكل إلى برينس هاوس كنت أشعر بارتياح من تخفف من بعض حمله. التفت إليه فجأة وقلت وأنا ابتسم:

- قد نحترق في هذا الوهج، صحيح، ونصير رمادا، وقد تنضجنا النار فنطلع منها كأنبياء أو كأرغفة!

ولما وصلنا إلى برينس قلت:

- انتظر دقيقة!

صعدت إلى حجرتي وأتيت بالصندوق الخشبي الصغير المطعَّم بالصدف الذي كنت قد ابتعته من القاهرة ومددت يدي به من نافذة السيارة وأنا أقول بابتسامة:

- كنت أتصورك أستاذا كبير السن، فلما وجدتك تقاربني في العمر، خجلت من إعطائك الهدية التي حملتها لـــك من مصر. الآن صار الأمـــر مختلفـــا. لقـــد صـــرنا صديقين أليس كذلك!

للعين الخارجية كنت أقدم نموذجا للقدرة علـــى التـــآلف السريع مع واقعي الجديد، فأنا أجيد الإنجليزية، ويسهل علي التواصل مع الناس، وأحب الثرثرة مني ومن الآخرين، فمـــا انقضى أسبوع على وصولي حتى كنت قد تعرفت على عدد كبير من الطلاب الأمريكيين والأجانب.

ومع هذا كان الارتباط داخلي هو الغالب، إذ بدا لي كل شيء غريبا ومختلفا. ومنذ اللحظة التي دفعت فيهـــا البـــاب الزجاجي لمطار لوغان في بوسطون وخرجت إلى الشارع، كنت أخطو في عالم جديد، جديد حتى في تســـاقط الأمطـــار بهذه الغزارة في يوم قائظ الحرارة في آخر شهر أغســـطس جلست فيه بجوار سائق تاكسي أراقب الحركـــة المســـتمرة

لمسَّاحات السيارة ولحبات المطر وأنا أتصبب عرقا من شدة الرطوبة والحر.

حين وصلت الجامعة لم تكن الدراسة قد بـــدأت بعـــد، وكان معظم الطلاب لا يلبسون إلا الشورت والطالبات يضفن له « بلوزة » قطيفة لا يتجاوز عرضها الشبر تترك الـــبطن والظهر عاريين للشمس، يسيرون أحيانا حفاة فـــي المكـــان يتبادلون قبلات العشق علنا، ورغم طرافة المشهد الذي لـــم يكن يسيء لأي معتقد لي، فقد كان يؤكد أنني بعيدة بل بعيدة جدا عن كل ما عرفت وألفت، وأنني وحدي.

وحدي كنت في غرفتي في برينس هاوس بعد أيام مـــن وصولي، حين دق الباب ودخلت امرأة في منتصف العمـــر يداها محملتان بالحقائب. حيتني برأسها ودخلت وضعت مـــا في يديها وخرجت، ثم جاء رجل يحمل هو أيضا أشياء. ثـــم عادت المرأة محملة اليدين للمرة الثانية. وهكذا ظلا يروحان ويجيئان وقد رجحت أن السيدة ستكون زميلتي في الغرفة.

كذب ظني، أخيرا ظهرت فتاة شقراء طويلـــة نحيلـــة، سلمت علي وسلمت عليها، ثم انشغلت مع من اتضح أنهمـــا أبواها في ترتيب الأشياء، الملابس في الدولاب، المـــلاءات

والأغطية على السرير على المكتب والآلة الكاتبة ومجموعة من رزم الأوراق التي لم تفتح. وتصورت أن الفتـــاة علـــى صغر سنها لا بد في مرحلة طباعة رسالة الـــدكتوراه. ولـــم أستنتج ذلك من الكم الهائـــل مـــن الأوراق المكتبيـــة التـــي وضعتها بجوار الآلة الكاتبة فقط، بل أساسا من هذا التفـــاني والإيثار الواضحين جدا في تصرفات والديها. حيَّاني الرجل والمرأة ونزلا ونزلت لويز معهما. ولما عادت كانت تحمـــل بيدها دبا قطنيا من لعب الأطفال في حجم طفل قوي البنيـــة تعدى عامه الأول، ووضعته على سريرها. وما إن جلســـت حتى سألتها:

لويز، ما هو تخصصك؟

- التربية البدنية.

- عفوا؟

ولكني كنت قد سمعت جيدا.

جاءت لويز إلى الجامعة لتدرس التربية البدنيـــة وهـــي جنوبية من ماريلاند، هذا ما قالته لي بعد ذلك، تـــأتي إلـــى أمهرست للمرة الأولى. قالت لي إن أجدادها لأبيها تجري في عروقهم دماء ملكية برتغالية.

- وأجدادي لأمي......

ولم أسمع باقي العبارة، كنت أفكر أنني أخيرا قد أكـــون وجدت السبب في التعالي المنكمش الواضح في تعاملها معي، فهي لا تحدثني إلا إذا سألتها، وتـــرد بـــأدب شـــديد يؤكـــد المسافات، تصحو مبكرا على صوت المنبه وتأكل في صمت متباعد، وفي المساء تضـــع دبهـــا القطنـــي تحـــت رأســـها وتضطجع في السرير تقرأ في الكتاب المقدس.

مرة واحدة فقط بادأتني لويز الحـــديث، وبـــدت قلقـــة ومتوجسة ومرتبكة وهي تسألني:

- ما هي ديانتك؟

- أنا من أسرة مسلمة.

ثم... صمت مطبق!

زاد وجود لويز معي في الغرفة من إحساســـي بـــأنني وحدي، أقول لنفسي أحيانا: هل فقدت عقلي لكـــي أســـتبدل بيتي في القاهرة ورفقة مريد بهذه الجنوبية البيضـــاء ودبهـــا القطني! ».

ورحت أنتظر رسالة من القاهرة، رحت أنتظرها كـــل يوم رغم كل الحسابات التي تقول إنها لم يحن وصولها (ألم

أرسل عنواني بعد وصولي؟ ألا يجب أن يصل العنـــوان؟ ألا تستغرق الرسالة أسبوعا على الأقل للوصول إلـــى القـــاهرة وأسبوعا آخر للوصول منها؟) كنت أعـــي اللامنطـــق فـــي عنادي ولكني كنت بحاجة إلى الانتظار، بحاجة ملحـــة إلـــى الفعل اليومي في ظل وجود رسالة حتى لو كانت هذه الرسالة وجودا غائبا هو المنتظر! وكانت هذه هـــي بدايـــة علاقتـــي بصندوق البريد الصغير في الدور الأرضي ببرينس هـــاوس الذي يحمل رقم غرفتي « ٢٢٤ ». في اليوم الواحد أمر بـــه عدة مرات، أنظر عبر طاقته الزجاجية فلا أرى شـــيئا ثـــم أفتحه للتأكد، أجده خاويا وأهب. فهل كنت خائفة؟ ساعتها لم أع مدى خوفي، ولكني كنت أعرف أنني قلقة. وبدا لي أنني ومريد اللذين عشنا طويلا في ظل جغرافيا مفرقة، بافتراقنـــا هذه المرة قد نضيع. ولد وبنية عاشقان، نعم، ولكنهما يسيران كل وحده في طرقات نصف مختلفة من دنيا واسعة لا يميزها الأمان بشكل خاص. كان قد مضى علـــى صـــداقتنا ســـبع سنوات وعلى زواجنا ثلاث. وفي القاهرة بدا لـــي بعـــد أن فكرنا في أمر قبولي للمنحة الدراسية وسفري وقبلناه، بدا لي

أنين امرأة خرقاء تترك أمان البيت، (وطنا هو ألفة الأماكن والصحاب ورجلا تحب، وتذهب هكذا! ».

وتلك الأغلفة الستة المصفوفة بجوار بعضها في مكتبتنا البنية تحمل رسائلنا وحكايتنا على مدى ثلاث سنوات قبل الزواج نلتقي فيها لشهر واحد كل عام، كم غلافا تزيد وكم رسالة ؟ أمرضتني الفكرة، لازمت الفراش وعادني الطبيب وبدا لي أنني مضطربة، ولكني في الحق كنت خائفة إلى حد الذعر. ووقفت كمحاربة خذلته نفسه حين رأى وجه غريمه المنقض. سأولي الأدبار، قلت لنفسي، ولكني سافرت.

بعد أسبوع من وصولي أعلنت إدارة الجامعة أن على الطلاب الجدد أن يتواجدوا في اليوم التالي في مركز الحرم الجامعي لالتقاط الصور الخاصة بالبطاقة الجامعية.

في الساعة المحددة توجهت إلى المبنى المحدد تحت أمطار غزيرة في جو رطب. وفي المركز وقفت في صف طويل بممر ضيق يزيد من الشعور بالاختناق الذي يخلفه امتزاج الرطوبة بالحرارة. وأخيرا جاء دوري والتقط المصور لي الصورة وذهبت.

بعد أيام حين تسلمت البطاقة الجامعية كان عليها صورة صغيرة ملونة أكبر قليلا من حجم طابع بريد لفتـــاة شـــعرها قصير ومشعث، عيناها الواسعتان محدقتان أكثر من المعتاد، لهما نظرة قلقة مضطربة أضاعت كل ملاحة للوجه، صورة يتبادر لمشاهدها أنها لفتاة بلهاء أو مذعورة!

٢

حين استيقظت من نومي صباح ذلك اليوم الخريفي شهر أكتوبر نويت الذهاب إلى المركز التجاري لشراء آلة كاتبة. ولما كانت السماء صحوا والطقس ليس شديد البرودة. قررت أن أذهب مشيا. خرجت من البيت ولم أنحرف يمينا إلى الطريق المؤدية بي مباشرة إلى الوادي بل سرت في اتجاه شارع أحبة، يمتد من الجامعة المتداخلة في البلدة والتي لا سور لها إلى خارجها، حين وصلت إلى الجامعة في الصيف كانت أغصان الأشجار المغروسة على جانبي الشارع تتشابك مكونة خميلة خضراء لا تنفذ منها أشعة الشمس. أما الآن وقد بدأت الفروع تتخفف من بعض أوراقها، فلقد راحت أشعة الشمس تتسلل عبرها وتصل إلى الأرض تزاحم الظل عليها مكونة مساحات متداخلة من العتمة والضوء. وأفكر في الدنانير التي تفر من البنان » ثم أخذني من أبي الطيب المتنبي خشخشة الأوراق الجافة تحت خطواتي وأنا أمشي ودوائر الأوراق التي تحيط بأسفل جذع كل شجرة وكأنها

تؤكد انتماءها، أوراق صفراء وذهبية وبنية وفي لون نشارة الخشب. انحرفت يمينا وبدأت الطريق في الانحدار وأخـــذت أسير بحركة مندفعة للأمم بفعل الطريق المنحدرة مســتجيبة لروعة المكان بتوقد داخلي صاخب ثم بدأت أركض، تفاجئني الأشجار فأتوقف وأسير ببطء، ثم أعود أســتجيب لتوهجهــا بالركض ثانية. لم أر هكذا أشجارا في حياتي، لم تكن كثرتها وتنوعها وكثافة الأوراق فيها هي التي تهــب المكـــان ذلـــك الوهج بل تعدد فريد لألوان الورق علـــى فـــروع الشـــجرة الواحدة. ورق أخضر على استحياء كأنه الربيع في البـــدء، وأخضر زاه، وأصفر ساطع وأصفر أنعم، وبرتقالي صاخب، وأحمر كالحناء، وأحمر كالصدأ، وبني فاتح، وبني داكن، ثم بني قاتم كالموت. وكأن الشجرة الواحدة قد حلت فيهـــا كـــل حالات الوجود، عرس، الألوان. ثم ماذا بعد تـــوهج هكـــذا مطلق؟ التفكير يتنافى.. تركته للركض كمهرة أو كطفلـــة أو كامرأة تحب أن تمجد الحياة بشكل لائق حين تتبـــدى هكـــذا جميلة.

وحين بدت صفوف السيارات اللامعة في ضوء الشمس والمصطفة في المساحات الواسعة المخصصـــة لهـــا أمـــام

المحلات التجارية كنت قد سرت ما يقرب من الساعة. التفتّ ورائي، فإذا بمباني الجامعة بأعلى التل تبدو كعلب كبريت متفاوتة الأحجام، متناثرة هنا وهناك ومتنافرة مع المكان بشكل واضح. أدرت لها ظهري وأكملت الطريق إلى المحل الذي أقصد.

قلت وأنا أنظر للطريق الصاعدة أمام هأنا لم أحسب للرجوع حسابا، سينقصم ظهري دون الوصول! على أي حال أحاول. سرت بضع دقائق ولكني كنت متعبة، لم تكن الآلة الكاتبة التي اشتريتها، رغم كونها من النوع الصغير الذي يحمل حقيبة خاصة، خفيفة. توقفت على طريق السيارات ومددت ساعدي قابضة أصابع اليد باستثناء الإبهام كنت قررت أن أركب « أتوستوب » رغم ما سمعت من تحذيرات بأن الأمر صار مخاطرة لكثرة أحداث العنف. ما الذي سيحدث لي في وضح النهار وعلى بعد أميال معدودة من الحرم الجامعي؟ توقفت سيارة:

- هل أنتم ذاهبون باتجاه جامعة ماس؟

رد أحدهم بالإيجاب ففتحت باب السيارة قائلة:

- سأنزل بأعلى التلة.

وحين نزلت من السيارة بعد أقل من خمس دقائق كـــان لدي سبب إضافي للمرح إلى جانب توفير جهد طلوع الجبل سيرا هو النظرة المندهشة للشباب الأمريكيين الثلاثة الـــذين كانوا بالسيارة. والأرجح أن لهجتي الواثقة، الآمرة تقريبـــا، كانت أكثر مما يتوقعون من شخص أجنبي، فما بالك وهـــذا الشخص ليس من الجنس الأوروبي الأسمى ولا حتـــى مـــن جنس الرجال!

ما إن تتراجع المنغصات بعض الشيء عنـــي وأصـــفو حتى تطل الطفلة برأسها من داخلي على استحياء ثم تدريجيا تروح تستعيد مجد الأيام الفائتة حيـــث كـــان صـــخبها هـــو المحرك والقاعدة. هكذا كنت في ذلك اليوم الخريفـــي، ولـــم تكن الأشجار هي العلة وحدها، بل كان أنتـــي بـــدأت آلـــف المكان وأرتبط ببعض من فيه.

تركت لويز زميلتي في الحجرة الجامعية مكانهـــا بعـــد أسبوعين من وصولها. فشعرت بارتياح عميـــق لانفـــرادي بالحجرة دون سليلة ملـــوك البرتغـــال التـــي اكتشـــفت أن لانكماشها مني أسبابا أخرى أيضا. كانـــت الفتـــاة الجنوبيـــة البيضاء خائفة مني، متوجسة من لون بشرتي، من خلفيتـــي

الدينية، من جنسيتي، كانت باختصار خائفة من مجرد أنني أنا، وأنني موجود في هذا العالم. فهل كانت لويز تخشى أن أقوم في الليل وأدق الطبول من حولها ثم ألتهمها حية! أم تخشى أن أطيح برقبتها الملكية وهي نائمة؟ أم كانت البلهاء تخاف أن أتحين الفرصة في غيابها وأدق على آلتها الكاتبة؟ لا أدري على أي شيء أسقطت لويز مخاوفها، لكن المهم أنها انزاحت عن الجامعة وقلبي فاسترحت.

ووصلتني من مصر رسائل. رسالتان من مريد جاءتا معا وهذا الصندوق الصغير صار طيبا لا أنسى عطاءه حتى حين أفتحه فلا أجد بداخله شيئا. رسالتان في الصندوق معا، وبعد يومين رسالة أخرى ثم رسالة من صديقة لي. وأنا أغلق باب الصندوق الصغير برفق الصديق وأفتح الرسالة وأبدأ في قراءتها وأصعد درجات السلم المفضي إلى حجرتي بالدور الثاني أو أقف أمام الصندوق أقرأ الرسالة مرة أولى قبل الخروج إلى الجامعة للحاق بمحاضرة.

وتأتيني كلمات مريد كقبلة على الجبين تباركني، أخرج وأرتبك وأسأل نفسي في عتب هل كانت تنقص مريد الغربة؟ تستحيل عودته لفلسطين والبيت ليس وطنا ولكنه وطن!

تحمس لسفري، وشجعني، ولكني أعـرف أنـه سـاعة أدار المفتاح في الباب ودخل البيت داهمته الوحشة فكيف أردهـا عنه. يقول في رسالته: « حين سافرت سافر الـوطن مـرة أخرى »، وهو لا يعرف أن هذه الرسائل كانت في الغربـة لي هي الوطن، أمامها يتراجع الشعور بأنني انفلتّ ضـائعة في فضاء خارجي لم أعرف له بعد قانونا. ستزيد المغلفـات حاملات رسائلنا، ليس هذا محزنا إلى هـذا الحـد، أليسـت حكايتنا هي التي تطول وتبدأ فصلا جديدًا؟

وقدمي التي كدت أرجع بها إلى الوراء أقدمت خطـوة على استحياء ثم خطوتين، وراحت المرأة الصغيرة تستجيب وتتعلم.

أخذت أقرأ بنهم في التاريخ وفي الأدب، أدخل مساحات من المعرفة تثقل القلب، وأحيا من جديـد آلام سـيدة الآلام أفريقيا النازفة عبر مئات السنين. أربعون مليونا من أبنائهـا يشحنون في السفن هم البضاعة وهم الحمولـة. عنـد هـذه القلاع على شواطئها الغربية يُختمون، تكدس السفن بهم إلى وجهتها في عالم جديد يبدءون أيامهم فيه على خشبة المـزاد العلني. بيع وشراء، مال وبضاعة. تتحرك الآلة تبتلع وتنتج.

عبيد كثار يفلحون أرضا. سيد في بيت أبيض مرفوع على عُمد. مساحات تترامى من تبغ وقطن وقصب السكر. آلة تبتلع العمر وتدور. والعبيد يغنون: « أحيانا أشعر / كطفل لا أم له / بعيد جدا عن بيتي ». عبد يهرب تحت جنح الليل. عبد يتآمر في السر. عبيد يقسمون: حتى الوليد من صلبهم سنقتله لأنه سيكبر يوما ويصير بالحق العنصري مالكا لنا. ولكنهم يقتلون. الأحمر يغلب في هذا العالم الجديد في العنف، والغربة تسري. ويحكي العبيد عن العبد الفتي الذي صرع الشيطان في حياته ثم مات ووجهته الجنَّة فلم يُقبل، فقصد جهنم فلم يُقبل، فحمل مصباحه وراح يهيم في الكون وعبر الزمان. تتعاقب الأجيال والغربة تسري، وقطار يحمل أسرا من السود يأتون إلى مدن الشمال هربا من دودة القطن وسطوة الأسياد. العبودية فعل ماض. وهؤلاء القادمون أحرار بحكم التاريخ والقانون المدون. وتدور الآلة تبتلع وتنتج. هذا أسود يضرب حتى الموت. هذا أسود يهمس في الفجر. جموع سوداء ونار تضطرم في المكان كحريق تتناقله أشجار الغابة في العاصفة. والغربة تسري والأحمر يسري.

وأقرأ في الأدب الأفريقي وتاريخ حضـــارات، تتســـع المساحات أمامي وتترامى. وهذا الأزرق البحـــري حـــدود المكان. والزمن يسري مثقلا بالفعل كهذه الأنهر الثلاثة: النيل والنيجر والكونغو. أخوض في الزمان فأنتمي للمكان. مقص صغير يدور في ورقة سوداء محددا شكل أفريقيا. مساحة من الأسود ألصقها على خلفية الأخص، وبقلم رصـــاص أرســـم خارطة القارة على ورقة بيضاء وأفصِّـــل عليهـــا جغرافيـــة المكان وحدود دوله، ألصقها على خلفية من الأحمر. وأقبـــل بنهم على هذه الكتابة التي كنت أجهلها. تتســـع المســـاحات وتتحدد والعين تبصر جموعا تسعى وسدودا تعترض طريق النهر. هذا سد يسقط. هذا الســـد سيســـقط. جمـــوع تســـعى تبصرها العين ويخشى القلب الدم المسفوك ثم يهلل هلليلويا! وأتعلم.. من حركة خاطفة على حشائش ندية يعقبها ســـكون منكمش متوجس لصق جذع شجرة. السنجاب الجديـــد علـــيّ يباغتني فأعرف أنه في سكونه كالفأر قبيح ولكنه في حركته الخاطفة انسياب مدهش وجميل.

وأحضر حفلا موسيقيا لديوك ألينغتون وأســـتمع للمـــرة الأولى لموسيقى الجاز تعزفها فرقة أمـــام عينـــي. وجاهـــدة

أحاول الفصل بين الرجل الجالس إلى البيانو والذي تجاوز السبعين والنغم المنبعث من حركة يديه ومن الآلات الأخرى التي يقودها فلا أستطيع. هل هذه الموسيقى منه أم هو الذي منها؟ وأي إيقاع ذلك الذي يملأ المكان ويحاوره جسد الشيخ العازف، إيقاع سنوات العمر السبعين أم إيقاع الموسيقى أم هو إيقاع أمة في السبي؟ وهذا الساكسافون وجع الروح مرئيا ومسموعا.

كنت قد بدأت أستعيد شيئا من الطمأنينة والقدرة على الصخب. لذلك حين وجدت نفسي بين كل تلك الأشجار المتوهجة في ذلك اليوم الخريفي الدافئ توهجت ورحت أركض كمهرة نافرة أو كطفلة.

دخلت إلى برينس هاوس وبيدي الآلة الكاتبة الجديدة وانحرفت يسارا حيث صناديق البريد فسمعت مسز روبنسون، مديرة البيت، تقف بباب حجرتها في نهاية الردهة تناديني. حين وصلتها كانت قد عادت إلى مكانها المعتاد وراء المكتب قالت:

- روبرت وزوجته اتصلا بك وهما يعربان عن أسفهما لاندلاع الحرب بين مصر وإسرائيل...

- أنا أيضا آسفة لهذه الأخبار، أرجو ألا تقلقي أكثر من اللازم!

للحظة بدا لي أن المرأة بصوتها الرفيع وجسدها النحيل الجاف ومكتبها وحجرتها وجود كابوس عبثي. أية حرب؟ وأي أسف؟ وأي روبرت؟ صعدت ركضا إلى حجرة الطالبة العربية الوحيدة بالبيت « ماذا حدث؟ » رحنا نقلب في محطات الإذاعة.

حين اندلعت حرب ١٩٦٧ كنت في إحدى قاعات الدرس بجامعة القاهرة أقدم امتحانا في اللغة اللاتينية، وفي وعيي الذي خلقته الأناشيد الحماسية وخطابات عبد الناصر وجو الإنجاز الوطني العام الذي أشاعه إعلام المرحلة، كان الاشتباك مع إسرائيل يساوي لحظة لاسترجاع الحق ودحر الغزاة، وكأن زحف الجيوش باتجاه أراضي فلسطين المحتلة يعني انتصار الجيوش في تحريرها، وكأن الحرب فرح أو وعد بفرح. ولذلك حين سمعت صوت القصف وأنا جالسة أكتب إجابة سؤال من أسئلة الامتحان لم أتوجس. ولما غادرت القاعة وعرفت خبر اشتباك القوات اندفعت في الحماس. فما الذي حدث الآن لكي أشعر بهذا الخوف الغالب

وكل هذا الارتباك؟ هل صرت بلا وعي مني أربط بين حرب وانكسار؟ أم هي عزلة الغريبة في بلد بعيد؟ أم هو الحس العاقل بأن حكاما كهؤلاء لا يمكن أن يقودوا البلاد لبر أمان؟ أقعدني الخوف وليوم وبعض يوم لازمت غرفتي هيّابة من مواجهة الآخرين.

وانتظر مكالمة تلفونية من القاهرة. لا تأتي، والإعلام الأمريكي حصار، وغولدا مايير بفيلم تلفزيوني تتجول بين بنايات من ثلاثة وأربعة طوابق. هل يمكن أن تكون السويس؟ قال المعلق في نشرة الأخبار إنها السويس! وتحمل « النيويورك تايمز » في صحفتها الأولى صورة لجند مصريين أسرى مع حارسهم الإسرائيلي وكعب بندقيته بمستوى رءوس المصريين. بأسفل الصورة. ولا نتيقن من إنجاز العبور وتحطيم خط بارليف لا وقد وصلتنا أخبار الثغرة.

كنا عشرة من الطلاب العرب في جامعة أمريكية عدد طلابها يتجاوز العشرين ألفا. من العشرة أنقصنا ثلاثة، واحدا متفرغا للنصب واثنتين محكومتين بقبضة حديدية لرجل هو زوج الأولى وأخو الثانية. (تذهبان معا إلى المختبر في

الجامعة ومعا تعودان ويا ويلها من تلفت يمنة أو يسرة!) كان عددنا قليلا فقررنا تشكيل لجنة لا تقتصر علينا بل يسهم فيها كل من يرغب من طلاب الجامعة. وحين تشكلت اللجنة كان بها طلاب أمريكيون من الشبيبة الشيوعية والتروتسكية وطلبة من أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وبهذا اكتسبت « لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني والعربي » مكانتها بين نشاطات طلاب العالم الثالث داخل الحرم الجامعي.

واجتمعت اللجنة للمرة الأولى في قاعة صغيرة من قاعات اتحاد الطلبة. قعد البعض منا على الأرض ووقف البعض الآخر وجلس الباقون على الكراسي القليلة الموجودة. على الأرض جلس شاب من منظمة الشبيبة التابعة للحزب الشيوعي الأمريكي يعلق في سترته الجينز الكالحة شارة معدنية مدورة عليها صورة قبضات مرفوعة لسواعد بيضاء وسوداء وحمراء. له لحية كثة وشعر مشعث يلمه خلف أذنيه بشريط أسود دقيق، ويربط عنقه بمنديل أحمر كأنه بحَّار عتيق. تكشف ملامحه الدقيقة وعيناه القلقتان عن بنيان نفسي رقيق بل وهش. كان صغير السن، لم يتجاوز العشرين على الأرجح، وشديد العذوبة في تعالمه مع الآخرين.

في مقابله جلس أيضا على الأرض شباب تروتسكيون ثلاثة، فتاة واثنان من الشباب تكشف هيئتهم عن انتمائهم للثقافة الهيبية. ملابسهم عتيقة وكالحة. لا تلبس الفتاة صديرية ويصل شعر الشابين إلى أكتافهما. تكلموا عن رفضهم لإسرائيل كدولة استعمار استيطاني.

وشاب أمريكي من الجماعات السوداء وقف مستندا إلى الحائط، فارع الطول ونحيل، سواده لامع، جميل القسمات، تبدو واضحة عنايته بما يلبس. يعي جماله وقوته ويحب أن يعرف الآخرون أنه أسود جميل وقوي.

وبجواره وقف الشباب الأثيوبيون في وجوههم اختصار مدهش للعلاقة القديمة بين القارة السوداء وجزيرة العرب، في عيونهم إباء لا يعيرون ملبسهم عناية خاصة، يتكلمون بهدوء وخبرة تنظيمية.

وفي ذلك الاجتماع الأول لم يحضر سوى بدرو من طلبة أمريكا اللاتينية، فتى فوّار وطيب ويصر على أنه من أصل فلسطيني. « جدي من فلسطين »، « وما اسم جدك يا بدرو؟ » فيحمر وجهه ويقول بالحماس السريع نفسه: « ليس جدي مباشرة بل أبو جدي!».

أما نحن الطلبة العرب فتناثرنا في القاعة نشـــارك فـــي الحوار ونعمل على الوصول إلى عدد من النقاط المشـــتركة نصوغها في بيان تأسيسي ننشـــره فـــي جريـــدة « الـــديلي كوليجيان » الجريدة اليومية للجامعة. كنا سبعة، مصـــريون ثلاثة وسوريان وفلسطيني ولبنانية. وكان واضحا أن البعض منا غير متصالح مع هذا التكوين للجنة حتى أن أحدهم قـــال بنبرة شبه غاضبة قبل مغادرته القاعة: « علينا أن نقـــرر إن كانت هذه لجنة عربية أم لكل من هب ودب من الشـــيوعيين والسود! » كان من الواضح أن زميلنا خائف مـــن وجـــوده هكذا فجأة وسط أناس يرفضهم طبقيا وعنصـــريا ويخشـــاهم سياسيا، ومع ذلك بقيت له عين في الجنة وعين فـــي النـــار، يريد فعاليتهم وقدرتهم على المساندة، ويتمنى في الوقت نفسه لو أنهم غير موجودين! والأرجح أن آخرين كانوا يشـــعرون بما يشعر به وإن لم يفصحوا عنه مثله.

أوضحنا موقفنا في بياننا وفي عدة رسائل إلى المحـــرر مركزين على أن عداءنا لإسرائيل ليس رفضا لليهود أو عداء للسامية بل هو رفض للصهيونية ولدولة استعمار اســـتيطاني ترتبط مصالحها بمصالح الإمبريالية. وبدأنا نتناوب العمل في

الوقوف أمام مائدة المطبوعات بمركز الحرم. ولم تكن مهمتنا هي فقط توزيع النشرات وبيع الكتب بل كانت أساسا توضيح الاستفسارات حول القضية ومناقشة من يريد الدخول في حوار حول الموضوع.

وكان الجو العام في القاعة شديد الحيوية والتنوع، فإدارة المركز تسمح بمائدة لكل من يطلب ما دام هناك مكان وموائد. بالقرب منا مائدة لفتاة تهوى صناعة الأحزمة الجلدية، تزخرفها بسكين وتبيعها، ومائدة أخرى لطلاب يصبون الشمع الملون في قوالب ذات أشكال مختلفة ويبيعونه. وموائد تحمل مطبوعات هذه الجماعة السياسية أو تلك، ومائدة عليها مطبوعات دعاة الشذوذ الجنسي، وفي لصقنا مباشرة وقف شاب هيبي الهيئة يبيع أدوات نحاسية صغيرة خاصة بتدخين الماريوانا.

كان مبنى مركز الحرم قد صمم حديثا لاستيعاب النشاطات الطلابية ولمنافع أخرى أيضا. مبنى ضخم من عشرة طوابق، طابقان منها تحت الأرض، يضمان مكاتب اتحاد الطلاب وقاعات للاجتماعات والعروض الموسيقية والسينمائية ومحلا تتفاوت معروضاته من الكتب إلى معجون

الأسنان ومحلا للحلاقة وآخر للطباعة ومكتب بريد وآلات «فليبرز» وبائعات آلية للسجائر والحلوى ومقهيان يوفران إلى جانب المشروبات بعض الوجبات السريعة. أما الأدوار العليا من المبنى ففيها فندق لزوار الجامعة ومطعم وبار. ولم تكن الحركة بمركز الطلبة تقل قبل انتصاف الليل.

في هذا المبنى نصبنا مائدة مطبوعاتنا بالقرب من أحد المداخل وكان البعض يتوقف للسؤال أو النقاش، وكثيرا ما كان يقترب شاب أو فتاة ويبدأ الحديث بالعبارة التالية:

- أنا يهودي / أنا يهودية!

باستفزاز، بحب استطلاع، أو بتوجس.

- نعم... و...

كنت أنتظر ما بعد ذلك. في أول الأمر كان العديد منهم يعتقدون أن هذا الرد دليل خبث أو حنكة سياسية أو على الأقل لباقة، ولكنهم تدريجيا بدءوا يصدقون ما كنا نقوله عن عدم عدائنا لليهود كيهود ومن تأكيدنا على الفرق بين اليهودية كدين والصهيونية كعقيدة سياسية.

هذا ما كان من أمر الطلاب اليهود العاديين، أما الصهاينة فكانوا شديدي العدوانية تجاهنا، وكان أكثرهم

عدوانية شباب « رابطة الدفاع اليهودي ». يسيرون داخل الحرم الجامعي بالطواقي على رءوسهم وعلم إسرائيل على شكل قطعة قماش مستطيلة ملفوفة على ذراعهم. وكلما رأوا أحدا منا وقفوا يحدقون فيه باستفزاز إرهابي صارخ. لم يجرؤوا على ضرب أحد منا خشية على أنفسهم ومستقبلهم الدراسي، ومع ذلك فلم يعدموا وسيلة لإشعارنا بأنهم هناك على استعداد للفتك بنا في أية لحظة. هكذا وقف أحدهم في مواجهة كل المتحدثين بإحدى ندواتنا على مدى ساعتين تقريبا يحدق في المتحدث ويحرك جذعه يمنة ويسرة. وهكذا أيضا كانوا يقفون بالساعات أمام مائدتنا لا ينطقون بحرف، فقط يحدقون فينا لإرهابنا، فنزيد حنقهم علينا بتجاهلهم ونواصل عملنا، الواحد منا يحل محل صاحبه حتى الرابعة مساء، نجمع مطبوعاتنا نودعها في صندوق كرتوني كبير ونسلم المائدة ونذهب.

منذ طفولتي المبكرة رحت أغالب الخوف وأخرج من كل جولة معه رافعة رأسي في اعتداد طفولي جميل. نشأت بين صبية ثلاثة هم إخوتي، ولأنني كنت دائما أخشى أن تنسب لهم الشجاعة والإقدام لأنهم ذكور وأن يرتبط بي

الضعف أو التخاذل، فقد كنت دائما أقفز للمواجهة تاركة خوفي ورائي. أمد يدي لأخذ حقنة التطعيم أولا وأدعي أن الحقنة لا تؤلم.. لا أراوغ في تناول الدواء المر بل آخذه في هدوء متكلف مدعية أن مرارته مقبولة.. أراهن أخي الأكبر أنني أستطيع تجاوز قدرته على التحمل.. لا أبدي خوفي حين أضطر للدخول إلى مكان مظلم. ولا أدري تحديدا أي آثار سلبية ترك هذا العناد الطفولي الممتزج برغبة في تأكيد الذات على سلوكي بعد ذلك ولكني أدري أنني اكتسب قدرا من الشجاعة الأدبية والإقدام.

ولكني في هذه الجامعة الأمريكية التي درست وأقمت فيها شعرت لأول مرة منذ طفولتي المبكرة بالخوف يلح. لقد نجح هؤلاء الصهاينة في إثارة قلق عميق في نفسي، هل ينقض أحد منهم عليّ بعصا غليظة حتى يحطم رأسي ؟ بأي شكل من الإيذاء يا ترى سيترجم هذا الشباب من « رابطة الدفاع اليهودية » كراهيته المتبدية بهذا العنف في نظرته لي؟ وهذا المكان الأمريكي لا يثير في النفس الأمان. وهذه اللافتات المعلقة في كل مكان تزيد من الشعور بذلك، لافتات موجهة من الشرطة إلى الفتيات: « إذا وقع اعتداء عليك

اتصلي تلفونيا بأحد الأرقام التالية » وتبعا للأرقام الرسمية المعلنة، هناك حادث اعتداء جنسي يتم كل ١١ دقيقة في الولايات المتحدة. ومسز روبنسون مديرة البيت الأمريكية تخشى الخروج من برينس هاوس بعد المغرب. فهل أفعل مثلها؟ هذه امرأة جففها الخوف. لم تحل مخاوفي دون الذهاب والرواح في كل وقت إلى أي مكان، ولكني في الليل حين يكاد الحرم الجامعي يخلو من الناس وأشعر بمجموعة من الشباب يسيرون خلفي أبطئ الخطو حتى أتركهم يتجاوزونني وأرتاح لأنني أنا التي تراهم وتشرف على حركتهم. وفي الأيام الممطرة أو تلك التي يتوقع هطول المطر فيها أشعر بقدر أكبر من الأمان (هذه المظلة لها عصا قوية، تصلح إن لزم الأمر للدفاع عن نفسي!).

٣

الركض حالة أعيشها دائما. في طفولتي كانت طاقة الحياة فيّ تلح وتفيض فأركض. وفي مراهقتي ركضت خوفا من جسدي النامي ومن الحراملك المنتظر. ثم بقيت أركض لكي لا أفقد ندّيتي للرجال من أبناء جيلي، أركض لكي أتعلم، أركض لكي أستقل، وأركض لكي لا يعيدني أهلي إلى حظيرة حبهم ووصايتهم، وأركض لكي لا يزج المجتمع بي في خانة الدونية المعدة سلفا للنساء. وبقيت أركض حتى صار الركض طبيعة ثانية لي. وهكذا منذ وصلت إلى أمريكا وجدت نفسي أيضا أركض درءا للغربة ووفاء بالتزامات دراسية متعددة سعيًا لتحصيل سريع يعيدني لمصر. فأحضر الدروس المقررة وأقرأ وأكتب وأناقش وأشرح وأقضي وقتا طيبا، دائما ركضا.

ولكن يحدث أحيانا ما ليس بالحسبان فأتوقف، بتوقف كل شيء. كنت أعبر الطريق ركضا وبيدي كتابان اشتريتهما

لتوّي حين بدا لي أنني أسقط من فوق سور عال، أتـــدحرج عليه بلا نهاية وعلى شفتي شبه سؤال معلق « لماذا »؟.

في المكان جلبة. أدور بعيني. أنا في الشارع. أنا ممـــدة على الأرض.. ممددة على الأرض في الشارع. أرفع عيني. يتحلق حولي أناس لا أعرفهم. هذا وجه أعرفه. أتعلق بــــه، أهتف « أهلا بدرو! » أعي تدريجيا أن حادثا ما وقع لــــي. النفير المميز لسيارة إسعاف. يحملونني فيها. بجواري يجلس شخص لا أعرفه يسألني عن اسمي فأجيبه.

- عنوانك.؟

- حجرة ٢٢٤ برينس هاوس.

- عنوان أهلك؟

- أهلي ليسوا في البلد.

يصرّ الرجل وأنا متعبة أقول لنفســـي إنـــه أحمـــق لا يتصور معنى أن يرسل للقاهرة بأن دهمتنـــي ســـيارة، لـــن أجيبه! تضايقني رجرجة السيارة، لماذا حملوني هكذا ممـــددة على ظهري. أغمض عيني.

هأنا ممددة مرة أخرى. أين؟ ضوء ساطع. يفحصونني. هل هذا مستشفى الجامعة؟ أسمع شخصا يقول « كونكاشن »

لا أعرف معناها. هل رحت في غيبوبة أم نمت أم أعطـــوني حقنة مخدرة؟ لا أدري... لا أذكر... كان الوقت صباحا حين نزلت لشراء الكتب. الوقت الآن ليــل. بجــواري مصـــباح صغير وباقي الحجرة مظلم. شاب وفتاة في لبـــاس أبـــيض. حين ألحظ وجودهما وأنظر في تجاههما يبتسمان لي. ثـــم لا أعود أشعر بوجودهما. هل نمت؟ هاهما ثانية. تضع الفتـــاة في فمي ميزان الحرارة ويقيس الشاب لـــي النـــبض. أنـــام وأصحو عليهما مرة أخرى يقيسان النبض والحرارة. يذهبان ويعودان. هل كانا يوقظانني أم كنت اســـتيقظ علـــى وقـــع خطواتهما؟ هل كانا دائما معا أم يأتي الشاب مرة والفتاة مرة أخرى فيبدو لي أنهما يأتيان معا؟ هل كان نوما أم غيبوبة؟

ولكني في صباح اليوم التالي كنت فـــي حالـــة جيـــدة. ولاحظت أن الممرضات كن ودودات، نقلنني إلى سرير آخر بجوار نافذة تكشف جزءا من التلـــة. هـــذا فعـــلا مستشـــفى الجامعة، والدور الثاني الذي أنا فيه في مســـتوى الأشـــجار نفسه من الجهة التي تطل النافذة عليها. كنا في بداية نوفمبر والشتاء لم يتوغل بعد فلم تتعرَّ الأشجار من أوراقها تمامـــا. بت أنظر إليها وأنا راقدة على جنبي الأيمن.

بعد الظهر جاءتني إحدى زميلاتي في برينس هـــاوس وأتت معها بما أحتاج من ملابس، وبعدها جاء زملائي مـــن الطلبة العرب وقال أحدهم مازحا وهو يسلم عليّ:

- طبعا، لم تعتادي السير بين السيارات. الجمال لا تدهم المشاة!

وأكمل الثاني ضاحكا:

- ما هي انطباعاتك عن الحيـــاة المدنيـــة بعيـــدا عـــن الصحراء؟

فقال الأول بسخرية:

- يجب أن تسألها عن التماســـيح أولا وهـــل تعتـــرض المستحمين في النهر!

قلت:

- أما أنا فلدي واقعة تفوق هذه الحكايات كلهـــا. حـــين وصلنا أقام لنا مكتب الطلبة الأجانب حفـــل تعـــارف وكان معنا طالبة جديدة من ألمانيا مالت عليها ســـيدة أمريكية لا أعرف من أي كوكـــب هبطـــت وســـألتها باهتمام بالغ: « هل لديكم تليفونات في ألمانيا؟ » ويبدو أن صدمة الفتاة الألمانية بالسؤال أفقدتها القدرة علـــى

الإجابة، ويبدو أيضا أن السيدة الأمريكية قد لامت نفسها لأنها أحرجت الفتاة بالسؤال، فقد لا يكون هناك في النهاية تلفونات في ألمانيا، فسكتت هي الأخرى ولم تنطق.

ضحك زواري من الحكاية وقال أحدهم وهو لا زال يضحك:

- إنك والله مفترية. صحيح إنهم جهلة ومنغلقون ولكني ليس إلى هذا الحد. اعترفي أن الحكاية من تأليفك!

قلت وأنا أبتسم:

- هذا ما سمعته، والعهدة على الراوي!

كنت أفضل بكثير من اليوم السابق ولم أعد أشكو آلاما محددة فاستكنت للرقاد في السرير وبي امتنان ضاف يصل لكل شيء حولي. دهمتني سيارة، وهأنا بخير، ملأني شعور بالامتنان. ولما أخبرتني الممرضة بأنهم سيجرون عليّ بعض الفحوص صباح اليوم التالي تمهيدا لخروجي من المستشفى كنت في حالة من الرضا والسكينة.

خرجت من باب المستشفى وكانت الشمس ساطعة تضفي شيئا من التألق على المكان ودفئا مميزا في يوم

خريفي. قالت صديقتي التي جاءت لاصطحابي: « إنهم جميعا ينتظرونك في السيارة » انعطفنا يمينا فوجدنا صديقنا الإيراني ينتظر بجوار سيارته ومعه نصف دستة من الصحاب أقبلوا عليّ جميعا وشدوا على يدي وقبلوني. عدنا إلى برينس وقد تحولت السيارة إلى نسخة من سيارات الأجرة التي تنقل الركاب بين أقاليم مصر، تحمل ضعف حمولتها من ركاب يثرثرون في صخب. قلت وأنا أضحك.

- لا ينقص السيارة إلا السلال!

وهكذا وصلنا إلى برينس هاوس ودخلناه آمنين في موكب ظافر « ألم نأت بالسلامة! » علّقت صديقتي بجدية.

كنت قد بدأت الارتباط ببرينس هاوس بمعرفة من فيه والاعتياد عليهم، من مديرة البيت التي تطل من باب حجرتها في الدور الأرضي من وقت لآخر كفأر يخرج رأسه الصغير من جحره في حذر متوجس، إلى مسئولَي النظافة في الدور الذي أسكن فيه اللذين كانا كشخصين فكاهيين في مسلسل تلفزيوني، أحدهما قصير وسمين ويضحك بصمت كأنه يبتلع ضحكاته، والآخر طويل يتحدث بصوت جهوري، يقذف بضحكاته الصاخبة فيتحرك فكه الأسفل الضخم بشكل

مفاجئ. ومن طلاب البيت صار لي أصدقاء أسـكن إلـيهم ويسكنون إلي، ومعارف كثيرون يمتد بيننا أحيانا جسور من المودة والدفء. والكل يعيش تجربة الانتظار المشترك ساعة توزيع البريد حين نقف كلٌّ أمام صندوقه الصـغير والفتـاة السمراء السمينة المسئولة عن توزيع الرسائل يوميـا تبـدو كخيال متحرك عبر زجاج الصناديق وهي تـوزع الرسـائل التي حملها رجل البريد قبل قليل.

وجاءتني زميلة جديدة في الحجرة لا تجري في عروقها دماء ملكية، فكان ذلك أول ما حمدت الظروف عليه. كانـت أنيتا في الثامنة والعشرين، أي تكبرني بعام واحد، وتـدرس للحصول على درجة دكتوراه في علوم التغذية. ما إن دخلت الحجرة وعرفت أنني مصرية حتى أعلنت عن فرحها الغامر لأن جدها لأمها من أصل سوري. وضعت أمتعتهـا جانبـا وجلست تحكي لي، كما يفعل الأمريكيون غالبا، عن شـجرة العائلة. قالت إن جدها هاجر من سوريا في شـبابه وعمـل بالتجارة وأثرى وتزوج من امرأة إيطاليـة كاثوليكيـة هـي جدتها لأمها، وإن الأزمة الاقتصادية العظيمة في عام ١٩٢٩

والتي عاصرتها أمها كطفلة صغيرة أدت إلى إفلاس الجد الذي مات كمدا بعد ذلك.

- جدي كان اسمه توفيق (نطقتها تفيك) أليس هذا اسما عربيا؟

ثم أكملت، وحماس اكتشافها للأصل المشترك بيننا يغطي مساحة جديدة من حديثها:

- أما أبي فمن المورمون، والمورمون هم جماعة...

كانت الفتاة طيبة وسهلة المعشر، بها مسحة ريفية تتبدى في جلستها وسلوكها المحافظ بالمقارنة لبنات جيلها من الأمريكيات. وهي تظهر ما تبطن فلا يخفى على أحد ممن يتعامل معها أنها رغم تقدمها الدراسي وصغر سنها، شديدة القلق لعدم زواجها إلى تلك اللحظة.

ويبدو أنني بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر على وجودي ببيت الطلاب هذا كنت قد استعدت قدرتي على الاستمتاع بدور المشاهد. ولما كان المشهد في الغالب له صفة الطرافة والغرابة، وهو الأمر الذي أخافني في البدء، فقد رحت أتابع ما يجري بالاستغراق المنفعل المندهش المتوجس أو المفتون

لشخص يشاهد فيلما سينمائيا لأول مرة، استغراق لا ينفي الوعي بالمسافة الفاصلة بين المشهد والمشاهد.

وأنا في طريقي من المكتبة إلى برينس هاوس رحت أمني نفسي برسالة أجدها في الصندوق الصغير. سوف أدير القرص برسالة أجدها في الصندوق الصغير. سوف أدير القرص الذي يحمل الأرقام جهة اليمين حتى يستقر على رقم ٣ وأدير القرص الذي يحمل الحروف جهة اليسار حتى يستقر على حرف اللام فينفتح باب هذا الكهف السحري الصغير كاشفا عن رسالة لي أو رسائل! فإذا لم أجد شيئا أسرعت الخطى.

لمحت كومة من الأوراق عبر الطاقة الزجاجية الصغيرة. هل يمكن أن تكون أوراقا رسمية من إدارة الجامعة أو إعلانات تجارية؟ أشفقت على قلبي الذي رحت أسمع دقاته وأنا أدير القرص لفتح الصندوق. هذه رسائل، رسائل بالطائرة! حملت بين يدي خمسة مظاريف مستطيلة تحمل اسمي وعنواني مكتوبة بخط مريد المرتب الواضح. وسرت ببطء في اتجاه السلم قاصدة غرفتي. كانت الرسائل بين يدي هكذا في مظاريفها المغلقة هدية غمرتني، كالوردة

التي حملها لي ابني تميم بعد ذلك بسنوات وهو بعد لـــم يـــتم العامين وقال: « أنا باحبك يا ماما.. باحبك وعشان كده جبت لك وردة! » خمس رسائل تصل امرأة مـــن الرجـــل الـــذي تحب، تصلها معا وفي الغربة. أيها أفتح أولا؟ فتحتها جميعا معا. غمرتني الدهشة، كانت قصائد! غمرتني الدهشة كما لو كنت أجهل حقيقة أن مريد شاعر أو كأنني لم أتلق منه فـــي سنوات سابقة عشرات القصائد الجديدة بالبريد وبدأت أقرأ:

كما يدخل الماء الصخور
بقريتنا في فصول الشتاء
يشق له ألف درب بباطن أعلى الجبال
ويخلد فيها كثعلبة ترقب
ويصغي لوقع خطى الزارعين
وشق المحاريث للأرض عاما فعاما
ويخرج نهرا ونبعا ونافورة تسكب
ويهتف كالطفل:
ها قد أتيت، تعالوا اشربوا
فيشرب منه اليمام وأهل القرى
وقوافل ضلت، وسنجابة تلعب

وتتغمر الأرض بالبرتقال

وتحمرّ فيها الورود، وتتضج كل الثمار الوليده

كذلك حبك يدخلني

ويشرق وجه القصيده!

بعد يومين وصلتني ثلاثة مظاريف أخرى تحمل باقي أجزاء القصيدة التي تتجاوز أبياتها الخمسمائة بيت. ولو أن القصيدة لشاعر آخر تحمل اسم امرأة أخرى لحملتها وانطلقت من غرفتي كالسهم البشير إلى الصحاب أطلعهم عليها. ولكن القصيدة كانت لي، مرآة مسحورة مد لي مريد بها يده عبر المسافة وقال هي لك! فهل هذه حقا أنا؟ كانت رضوى القصيد كزرقة النار صافية ومطلقة، وقفت أمامها موزعة بين الزهو والحياء ولا زلت!

حملت القصيدة في قلبي ورحت أواصل الفعل، في قاعات الدرس الموزع بين قسمي الأدب الإنجليزي والدراسات الأفرو – أمريكية، وفي المكتبة، ومركز الطلبة، والبيت الذي أسكن فيه.

في قسم الأدب الإنجليزي أتحرك داخل شحوب الألوان فالوجه الأبيض غالب، والردهات الطويلة مطلية بلون باهت،

وفي المساء حين نخرج من قاعات الدرس قاصـــدين بـــاب الخروج تبدو هذه الردهات، رغم التدفئة، بـــاردة موحشـــة، قابضة، لها في ضوء المصابيح الخافتة لون إنسان يحتضر.

وعلى العكس من ذلك كان المبنى الـــذي يضـــم قســـم الدراسات الأفرو – أمريكية، فالتدفئة هنا أعلى من العـــادي، فلا أكاد أصل الدور الثالث حيث قاعات الدرس حتى أكـــون متصببة عرقا. الجدران مطلية بألوان زاهية، منها الأخضـــر والأزرق والبرتقالي وحتى الأسود فيها له بريق. وبـــالمبنى فضلا عن القسم دار للحضانة لأطفـــال العـــاملين والطلبـــة، والمركز البيئي الخاص بطلاب العالم الثالث، والورش الفنية. وكان مألوفا في هذا المبنى الجامعي إذن أن يشـــاهد أطفـــال صغار من أصل إفريقي أو لاتيني وهم يصعدون وينزلـــون على الدرج. ولم يكن غريبا أن يُسمع صوت ساكســـافون أو طبلة ينبعث من الدور الأرضي حيث الورش. ورغم شانغو الكلب الوولف الكبير الذي يصطحبه أحد الأساتذة إلى قاعـــة الدرس ويربطه بسلسلة إلى النافذة أثناء المحاضرة فقد ألفـــت المكان ورحت أتحرك في ردهاته وقاعاته بتلقائية من عرف الشيء وارتبط به.

وإن كان احتفاء الآخرين هو دائما أمر مؤثر في النفس فإنه يكتسب في الغربة دلالة أكبر، ولقد كانوا في هذا القسم المختلف في جامعة نائية يحبونني ويحتفون بي لأنني أتيتهم من مصر. وأكد إمكانية التواصل السريع بيني وبينهم إحساسهم بأنهم وهم الأفارقة المقتلعون منذ قرون ينتمون بشكل من الأشكال لمصر وأنني وأنا المصرية بينهم لست غريبة عنهم.

كانوا يعتزون بإنجاز مصر القديم والحديث. وجدوا في مصر القديمة وحضارتها أكثر الوجوه إشراقا للقارة التي ينتمون في الأصل لها، وأمدتهم مصر عبد الناصر وحركة التحرر الوطني بسند مجدد. ولقد استندت النهضة السوداء في العشرينيات التي ارتفعت أصوات المناضلين إبانها تنادي بحقوق السود وتحررهم إلى حضارات القارة في مصر وإثيوبيا وممالك غرب إفريقيا ترد بها على أكذوبة أمريكا البيضاء القائلة بأن الأفارقة الذين حملوا قسرا من العالم الجديد هم بدائيون بلا تاريخ كانوا يعيشون في قارة مظلمة لم تعرف الحضارة.

وكان القسم ككل ذا توجه وطني تحرري واضح اختار له مؤسسوه اسم « قسم ديبوا للدراسات الأفرو – أمريكية » نسبة إلى ديبوا أبي الوحدة الإفريقية الذي دعا إليها بدءا مـــن عام ١٩٠٤ وناضل من أجلها بالفعـــل والكتابـــة، وتعـــرض للاضطهاد في فترة المكارثية وظل بلا جواز سفر حتى طلبه نكروما من حكومة الولايات المتحدة رسميا بعـــد اســـتقلال غانا. وكان الرجل حينذاك على مشـــارف التســـعين وراءه تاريخ شخصي حافل كباحث ومبدع ومؤسس لم يخفض فيـــه رأسه لعاصفة الإرهاب الأمريكي وبقي يدعو لتحرر شـــعبه الأسود في أمريكا وتحرر إفريقيا مـــن ســـطوة المســـتعمر وسطوة المستغلين من أبنائها حتى مات في غانا ودفن فـــي أرضها.

٤

« إنه الثلج! ».

ندف صغير ناعم أبيض يتساقط في اتصال من السماء إلى الأرض التي بدت مثل كعك العيد الذي ترشه أمي بعد إنضاجه في الفرن بالسكر المطحون الناعم. وأنا خلف زجاج النافذة أتابع سكون الأرض في الأبيض موزعة بين فرحة التجربة البكر وحزن الغربية.

والشتاء يتوغل ولم يبق على نهاية الفصل الدراسي إلا ثلاثة أسابيع. وأركض لأفي بالتزاماتي الدراسية، أركض إلى قاعات الدرس وإلى المكتبة وإلى المطعم وإلى برينس هاوس، أقرأ على استعجال، وأكتب على استعجال، وأحاول عبر الاتصال التلفوني أن أعرف الشروط الأنسب للحصول على تذكرة للسفر اشتريها ولو بكل ما معي، وكل ما معي أقل من أربعمائة دولار ولا زال جزء من قسط الجامعة غير مدفوع طلبت تأجيله. سأسافر، هكذا قررت حتى لو لجأت إلى الاستدانة.

هكذا في صباح يوم شتائي قارس غـــادرت أمهرســـت برفقة إحدى الزميلات، وجهتنا بوسطون. وبعـــد أقـــل مـــن ساعتين من بدء رحلتنا وصلنا المدينة.

تركتني زميلتي في أحد الميادين العامة بعد أن وصـــفت لي الطريق إلى فندق « ستاتلر هيلتون » حيث مكتب شركة الطيران التي أقصدها. كانت هذه هي المرة الأولـــى التـــي أغادر فيها أمهرست منذ وصولي إليها قبل ذلك بثلاثة أشهر. وبدت لي البلدة، وأنا أسير وسط ازدحـــام المدينـــة الكبيـــرة وضوضائها، قرية جبلية صغيرة ونائيـــة. منـــازل صـــغيرة مطلية باللون الأبيض، وسقوف قرميدية، وشارعان أساسيان متقاطعان تتجاور فيهما الكنيســـة وقســـم الشـــرطة ومبنـــى المطافئ والمقهى والبار وفندق اللورد جوفري ومحل الزهور ومحل تجهيز الموتى والمكتبات وبعض المحلات التجاريـــة. بلدة هادئة لها صخبها المميز لغلبة العنصر الطلابـــي علـــى سكانها؛ فحيث يتقاطع شارعاها الرئيسان كليـــة أمهرســـت، وعند أطرافها الشمالية جامعة ماساشوستس وعلى بعد أميال قليلة ثلاث كليات أخرى.

دفعت بالباب الزجاجي ودخلت إلى صالة فندق ضـــخم، أناقة رواده تشي بالثراء. سألت عن مكتب الخطوط الجويـــة الأولمبية وصعدت. بعد نصف الساعة نزلت وفـــي حقيبتـــي تذكرة سفر من بوسطن إلى أثينا ثم عودة إلى بوسطون فـــي رحلة مخفضة الثمن تنظمها الشركة في فترة أعياد المـــيلاد حتى يتسنى للمغتربين من اليونانيين زيارة أهلهـــم. دفعـــت بالباب الزجاجي مرة أخرى وخرجت إلى الشارع وبي فرحة طفل خارج من باب محل الألعاب وقد حصل علـــى اللعبـــة المحددة التي كان يريدها. فهاهي التذكرة معي ثمنها ثلاثمائة دولار، والطائرة تغادر بوسطون يوم ١٢/٢٣ وتعـــود بعـــد أربعة أسابيع. لم يكن بالإمكان تدبير شيء أفضل من هـــذا. سأكتب لمريد لكي يرسل لي تذكرة للسفر مـــن أثينـــا إلـــى القاهرة. ويبقى معي أقـــل قلـــيلا مـــن مائـــة دولار تكفـــي مصروفاتي وشراء بعض الهدايا.

توجهت إلى مقر القنصلية اليونانيـــة للحصـــول علـــى تأشيرة وحين انتهيت من ذلك كانت الساعة تقارب الثانية بعد الظهر. بدا لي مشروعي للتعرف على معالم المدينة أو زيارة متحف من متاحفها غير ممكن بما أنني كنت أنوي العودة إلى

أمهرست قبل المساء. تناولت وجبة غداء سريعة ثم رحت أتسكع في الشوارع أتابع الوجوه وواجهات المحلات والبنايات الشاهقة، ثم توجهت إلى بارك سكوير حيث محطة الأوتوبيسات المركزية واشتريت تذكرة ودخلت إلى مقهى المحطة لتناول كوب من القهوة. لماذا تبدو كل هذه الوجوه بائسة هكذا؟ كان معظم الجالسين في المقهى بسطاء الملبس تحمل وجوههم هذا التغضن المبكر الذي يميز وجوه الكادحين. تركت المحطة ورحت أتجول في المنطقة انتظارا لموعد الأتوبيس. بجوار المحطة محل كبير بواجهته الزجاجية العديد من الصور الطريفة والتماثيل الصغيرة المضحكة موضوعها الجنس في الغالب. دفعني حب الاستطلاع فدخلت. سألني البائع:

- أية خدمة؟

- شكرا، فقط ألقي نظرة!

أحرجتني نظرة الرجل الممتعضة فخرجت إلى الشارع، سرت بضع دقائق قبل أن أنتبه إلى أنه شبه مقفر، أليس هذا غريبا في هذا الوقت؟ ثم إن بهذا الشارع محلات تجارية على ما يبدو، تقدمت أكثر. صف من المحلات الصغيرة

تكتظ واجهاتها بصور عارية في أوضاع جنسية شائعة أو غريبة ومداخل صغيرة تعلن لافتاتها عن عروض أفلام جنسية. طرأ ببالي أن هذا الشارع قد يكون جزءا من حي الدعارة بالمدينة فشعرت بقلق لوجودي هكذا وحدي في المكان. هل هو الخوف الذي أطعمناه في طفولتنا ويفاعتنا بأن هذا الجسد الأنثوي مهدد يُخشى عليه؟ أم هو وعي المرأة النافرة بعيون رجال تتطفل على جسدها بالتملي الشره؟ أم هو قلق الريبة في مكان تجهل سنَّته وقانونه؟ رحت أغذ السير عائدة إلى محطة الأوتوبيس وقد فهمت فجأة لماذا نظر البائع لي هكذا حين قلت له بجرأة وبراءة ريفية صغيرة إنني « فقط ألقي نظرة! ».

حين تحرك الأوتوبيس في طريقه إلى أمهرست في الخامسة مساء أرجعت الكرسي الذي أجلس عليه إلى الوراء قليلا وأسندت رأسي ومددت ساقي أمامي وأغمضت عيني، آه لو أنني الآن جالسة هكذا في الطائرة المسافرة إلى القاهرة!

قبل يومين من سفري كنت انتهيت من الدراسات المطلوبة مني. وفي صباح يوم شتائي بارد لم أنم فيه من

الليل إلا ساعات ثلاثة رحت أراجع ما كتبت علني أجد خطأ مطبعيا أصححه. ثم وضعت كل بحث في مظروف بني كبير يحمل اسم أستاذ المادة، وغادرت البيت قاصدة قسم اللغة الإنجليزية أولا لتسليم واحد منها ثم توجهت بعد ذلك إلى قسم الدراسات الأفرو – أمريكية وأنا أمنّي نفسي بعد العودة إلى البيت بنوم طويل لا يقطعه رنين منبه. ولكني حين تركت غرفة سكرتيرة القسم وجدت نفسي أنزل الدرج وقد دبت فيّ حيوية عشرة قرود. ألم أنته بتسليم هذه الدراسات من فصل دراسي كامل؟ ألن أكون في القاهرة بعد أربعة أيام أو خمسة على الأكثر؟

تناولت كوبا من القهوة وعدت إلى برينس هاوس واستعرت دراجة إحدى الزميلات وقد قررت النزول إلى المركز التجاري لشراء بعض الهدايا. تجاوزت برينس وأنا أجر الدراجة بجواري حتى وصلت لنهاية الشارع ثم انحرفت يمينا وركبت وكأن الدراجة – في الطريق المنحدرة من أعلى التلة – كائن مسحور يسير على الأرض طائرا. في طفولتي كانت لي دراجة كنت أحب ركوبها، ومع سنوات المراهقة صار أبي يعترض على خروجي بها إلى الشارع. وبقي

ركوب الدراجة بالنسبة لي مرتبطا بمساحات الطفولة البريئة والثقة التلقائية في النفس التي صارت تخفت تدريجيا مع قلق المراهقة وشكوكها المتزايدة عما تستطيع تحقيقه. وإذ تطيـــر هكذا الدراجة بي أو أطير أنا بها أو يطير انحدار التلة بكلتينا تعود إلي مشاعري الطفلية بالقدرة والتمكن والفرح المطلـــق بالوجود ونفسي.

« هل أنا دائما لا أحسب للعودة حسابا؟ » سألت نفســـي بشيء من نفاد الصبر وأنا مضطرة للعودة سيرا على قـــدمي لأن ركوب الدراجة صار مستحيلا مع صعود التلة وما أحمل من مشتريات. علقت الأكياس على مقود الدراجة وأمســـكت بعلبة في يد وصرت أجر الدراجة في الطريق الصاعدة باليد الأخرى.

بعد يومين غادرت أمهرست برفقة أحد الزملاء كان في طريقه إلى بوسطون، وقد قررت أن أقضـــي الليلـــة فيهـــا استعدادا للسفر منها صباح اليوم التالي. تركنا أمهرست بعـــد الظهر، وكان الطقس دافئا نسبيا وممطرا. قطعنا الطريق في أكثر من ثلاث ساعات بسبب السيول، وكانت غزارة الأمطار وتساقطها المتصل على الأرض والسيارات تغلف الطريـــق

ببخار ضبابي وتحدث صوتا رتيبا يتداخل مع أزيز مسّاحتي السيارة في حركتهما المتصلة.

وحين وصلنا أخيرا إلى بوسطون كان الوقـت مسـاء وليس في المدينة من أثر الأمطار بل هواء عاصف قـارس. أوصلني زميلي إلى فندق، دفعت حساب الغرفة مقدما واتفقت عبر التلفون على سيارة أجرة تحملني في الصباح الباكر إلى المطار، ثم وضعت بعض القـروش فـي البائعـات الآليـة وحملت كوبا ساخنا من القهوة بالحليب وقطعة كيك وعلبـة سجائر وصعدت إلى الغرفة.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى مطار لوغـان حيـث حملتني الطائرة في رحلة داخلية قصيرة إلى مطار كنيـدي بنيويورك. ورحت أقطع الساعات في انتظار إقلاع الطـائرة اليونانية إلى أثينا في السادسة مساء. تجولت فـي المطـار الواسع كمدينة صغيرة، وتسكعت أمام بعض أكشاك الكتـب والمجلات، وتناولت الغداء في أحد محال الوجبات السـريعة بالمطار ثم بحثت لي عن مقعد لا تحيط به ضجة استثنائية.

جلست أدخن ثم ملت برأسي إلى الخلف إلى ظهر المقعد ومددت ساقي أمامي. لن ينادوا علينا لركوب الطـائرة قبـل

ساعة ونصف أو ربما أكثر. في المقعد المواجه لـــي كانـــت تجلس امرأة ممتلئة خمرية البشرة كامرأة من صعيد مصـــر. بوجهها تلك الخطوط المميزة والسابقة للأوان في وجه امرأة كادحة، كانت يداها أيضا تكشفان ذلك. لماذا تبدو هذه المرأة مصرية إلى هذا الحد؟ دخلتني رغبة ملحة في أن أذهب إليها وأسألها كيف أنها لم ترني وأنا أجلس أمامها. ألســت أيتهـا المرأة السمراء الناطقة بالإسبانية من بلدي؟ كنت أحدق فيهـا وأعرف أنها من بورتوريكو. كل ما فيهــا ينطــق بــذلك، وجهها، ولغتها، وامتلاء ردفيهــا ووجودهــا الكـــادح فـــي المستعمرة الأمريكية الكبيرة. هي عائدة إلى الجزيرة لا شك، لأي خطب يا ترى؟ أم هل هي زيارة للأهل والبلد ادخـــرت لها النقود سنة بعد سنة؟ والمرأة تقوم من مقعدها، هل أعلـــن عن قيام طائرتها؟ تسير ببطء نسبي وأنا أغمض عيني فأرى امرأة أخرى. هل هو شبه بينهما اســتوقفني أم هـــو الـــذي بالتداعي حمل لي صورة تلك الأخرى الأصغر فـــي الســـن قليلا؟ امرأة من إحدى قرى الـــدلتا تقـــارب الخمســـين أو تجاوزتها. هي أيضا لها هذه البشرة الخمرية الصافية وشعر أسود لا يبدو منه إلا الجزء اليسير من تحت منديل الـــرأس

المزين بالأوية، حاجباها هلالان في مطلع شهر قمري، وفي العينين كحل عربي أزرق، وتحت الشفة السفلى وشم أخضر، ولم أر أم فتحي إلا وكانت جميلة تنبعث منها رائحة طيبـــة. فما الذي أتى بها إلي الآن هكذا وأنا جالسة مغمضة العينـــين في هذه القاعة المكتظة بالمسافرين في مطار ج. ف. كنيدي؟

وأحمل حقيبة يدي وأسير باتجاه النفق الواصـــل بـــين المبنى وباب الطائرة. وأجلس أخيرا على المقعد ولكني بعـــد لا أميل بظهري للخلف ولا أمد ساقي أمامي، أجلس معتدلـــة وأربط الحزام وأنتظر الإقلاع.

والرحلة طويلة تقطعها الطائرة في عشر ساعات كاملة. ورحلة الشتاء مزعجة تخض الجيوب الهوائية الطائرة خضا فيبدو في كل مرة وكأنها سوف تطب لأسفل ثم تهوي. أربك معدتي تكرار ارتجاجنا المباغت والمتكرر، وزادني الإرهاق وقلة النوم ضيقا حتى صرت أشعر بالاختنـــاق فـــي ظـــلام الطائرة التي أخلد ركابها للنوم. أضيء المصباح الذي فـــوق رأسي فأشعر باختناق أكبر.

ثم بدأنا ندخل في مساحات الفجر، بنفسج أزرق لا يدوم إلا قليلا، يفضي لنهار طالع بمـــزج مـــن رمـــان وليمـــون

وبرتقال. والمرأة اليونانية الجالسة بجواري والتـــي أمضـــت الرحلة نائمة دبت فيها الحياة فجأة وصارت تنظر من النافذة وتحدثني، وتحدّث نفسها، وتحــدث مــن يجلســون أمامهــا وخلفها، وتكرر ما بين عبارة وأخرى: « كــم هــي رائعــة اليونان! » وكان المشهد بالفعل رائعا، وليس فقط في عينـــي المرأة العائدة للبلد بعد غياب. فالجزر غارقة في وهج شمسي كأن البلاد قدّت من ذهب أو كأن البحر شــمس. فهــل رأى اليوناني القديم بلاده هكذا من فوق قمة جبل فبدا له أن أبولو الفتى المتوهج الخصلات قادم إليه في مركبة من ذهب؟ ولا يأخذني من المشهد إلا الصخب المفاجئ لركــاب الطــائرة، كانوا جميعا، باستثناء اثنين أو ثلاثة، يونانيين عائدين لقضاء العيد في بلادهم.

في الليل خيَّم السكون على الطائرة، نــاموا أو صــمتوا برفقة الأحلام أو المخاوف. وعندما بدأت الطائرة تحلق فوق اليونان لم يبق أحد منهم جالسا على مقعده، وأخذوا يتبادلون الحديث الصاخب، ثم بدءوا يغنون معــا والطــائرة تســتعد للهبوط والمضيفات يكررن الطلــب بــأن يجلــس الركــاب

ويربطوا الأحزمة. وبدا وكأنهن – وسط هذا الفرح العـــام – يطلبن من الواحد أن يقيد روحه.

وعندما لمست العجلات أرض المطـــار دوى تصـــفيق الركاب وكلمات الإعجاب والشكر لقائـــد الطـــائرة. ورغـــم تعليمات المضيفات بالتزام الأماكن راح كل واحد منهم يفـــك حزامه وينهض من مقعده تهيؤا للنزول.

غادرت الطائرة يملؤني شعور بالوهن وبأنني هشة، هل هو الإرهاق بعد ليلة بلا نوم أم هو الضوء الســـاطع لهـــذه الجزر وتألق الأبناء في حضرتها؟ ربما كنت مرهقـــة مـــن السفر الطويل، أو لعلها العودة إلى مصر تفوق قدرة القلـــب الصغير.

حملتني وحقيبة سفري سيارة أجرة إلى فندق متواضع لا يبعد كثيرا عن ميدان الدستور بقلب أثينا. كان عليّ أن أنتظر حتى صباح اليوم التالي قبل أن أشرع في بحث أمر ســـفري إلى القاهرة. أردت أن أتحمم فلم أجد إلا مياها باردة. غسلت وجهي ويدي وساقي ونمت ثم خرجت في جولة سياحية فـــي المدينة. عدت ثانية ونمت.

حين خرجت إلى الشارع صباح اليوم التالي كانت المحال التجارية لا تزال مغلقة، وكذلك معظم المقاهي التي مررت بها. أردت أن أفطر، لم يكن بالفندق الذي نزلت فيه مطعم، وجدت مكانا تناولت فيه كوبا من الشاي وشريحتين من الخبز والجبن المؤكد أن مكاتب شركات الطيران لا تفتح قبل الثامنة صباحا. أنهيت إفطاري والساعة لم تتجاوز السابعة والنصف. رحت أتسكع في الشوارع وأنتظر. بدأت « بمصر للطيران » لا زال مكتبها مغلقا. درت على مكاتب الشركات الأخرى، « الأولمبية »، « اير فرانس »، « آليتاليا » لم يكن لي تذكرة عند أي منها. بدا لي أن الأرجح أن يكون مريد قد أرسل لي بالتذكرة عن طريق « مصر للطيران ». أخيرا في التاسعة والنصف ذهبت إلى مكتب الشركة فوجدته مفتوحا وسألت إن كانت هناك تذكرة باسم رضوى عاشور، راحت المرأة تقلب فيما لديها من برقيات ثم قالت:

- هل أنت متأكدة؟

- متأكدة!

خرجت من مكتب « مصر للطيـــران » وقــد اخــتلط ضيقي بالحيرة والتوجس والقلق. ترى هل مريد بخير؟ لعــل برقيتي لم تصله، ماذا أفعل الآن؟ هل يكفي كــل مــا معــي لشراء تذكرة ذهاب فقط إلى القاهرة؟ عليّ أن أحسب أجــرة الفندق والسيارة التي تحملني إلى المطار. آمل أن يكون مريد بخير. فكرت أن أجلس في أحد المقاهي لكي أفكر في هدوء في الخطوة التالية. في الطريق لمحت لافتة « سويس اير » التي فاتني دخول مكتبها. دخلت وتوجهت بالســؤال لشــاب وسيم صغير السن في زي المضيفين الأزرق الداكن. قال:

- ليس هناك تذكرة باسمك. من يدري لعل برقيتك إلــى القاهرة لم تصل.

سكت برهة ثم قال:

- أستطيع إرسال برقية على التلكس إلــى مكتبنــا فــي القاهرة فيتصلون تلفونيا بالشخص الذي ســيدفع ثمــن التذكرة. وأنت من ناحيتك تستطيعين الاتصال تلفونيــا بالقاهرة لتأكيد الأمر.

ووصف لي الشاب مكان مكتب التلفونات الدولي وقلت له:

- هل أعود لك بعد ذلك أم أتصل تلفونيا؟

- الساعة الآن العاشرة، طائرتنا للقاهرة تقلع في الخامسة، اذهبي إلى المطار قبل الثالثة. إذا وصلنا رد فسيعطونك تذكرة للسفر هناك وتسافرين مباشرة، لدينا أماكن.

كان الشاب ودودا للغاية، شكرته واتجهت إلى مكتب التليفونات حيث اتصلت ببيت أصدقاء لنا في القاهرة وطلبت أن يبلغوا مريد بأمر التذكرة. وعرفت أن برقيتي لم تصله وأنه كان قلقا لعدم وصول أية أخبار مني.

قلت لموظف الفندق وأنا أدفع له أجرة الليلة التي قضيتها: « لا تعجب لو وجدتني أعود إليك بحقيبة السفر بعد عدة ساعات! » وضحكت.

ولكن قلبي كان ثقيلا، وكذلك الحقيبة، وأنا أسير إلى مفترق طريق يجعل حصولي على سيارة أجرة أيسر.

في المساء يحتفلون بليلة عيد الميلاد، والشوارع صاخبة ومزدحمة وسيارات الأجرة قليلة. وأنا هذا المساء قد أدخل بيتي عائدة لألفة الوجوه والأصوات، وقد أبقى هنا أمر من شارع موحش وبارد أنظر فيه إلى النوافذ الكثار المغلقة

دوني على فرحة عيد صغير لأصل الفندق وأصعد إلى حجرة باردة يؤرقني في ضوئها الليموني الشاحب عبء الساعات. بلعت الغصة في حلقي ومعها تيار شعوري الكئيب، لماذا استباق الأحداث؟ وسألت سائق التاكسي المنطلق بسرعة مقلقة عن المدة التي تستغرقها الطريق إلى المطار.

راح الشاب الذي يعمل لفرع شركة « سويس اير » بالمطار يكتب في تذكرة السفر التي سيعطيها لي، ورحت أنا في فرحي، أنظر إليه بحب وقد بدا لي بشيرا يونانيا قديما يأتي لأهل المدينة بالخبر المفاجئ السعيد. وحين سلمني التذكرة شكرته واتجهت لتسليم حقيبتي وختم الجواز. لم يئسني إعلان تأخر إقلاع الطائرة لمدة ساعتين. فالليلة أنا في القاهرة والليلة عيد، والمرأة لا تضحك وحدها بلا سبب ولا ترقص هكذا فجأة وسط المطار المكتظ بالمسافرين إلا إذا فقدت عقلها، وأنا والله عاقلة ولكني أضحك، وبي رغبة تلح في الرقص وإعلان الفرح. أجلس لآكل شيئا وأحتسي فنجانا من القهوة ولكني أجد السكون على كرسٍ صعبا وابتلاع الأكل في هدوء أصعب، أقوم أتجول في المطار أشتري إناء

فخاريا صغيرا بني اللون مزينا بمثلثات وخطوط سود، إنه جميل جميل جدا، يصلح لمكتب مريد يضع فيه أقلامه. أيها الصانع اليوناني سلاما، أيتها اليونان التي لم أرها سوى لساعات وبقلب مثقل، سلاما وإلى عودة!

تنبهت إلى أن الرحلة لا بد تقارب نهايتها والمضيفة تحمل سلة بها فوط قطنية معقمة ومبللة بالماء الدافئ. ابتسمت لي المضيفة وناولتني واحدة مسحت بها وجهي ويدي، قمت إلى دورة المياه لأصلح من هيئتي قبل بدء الطائرة في الهبوط. « ترى كيف سأبدو لهم بعد هذه الشهور من الغياب؟ » تساءلت وأنا أقف أمام المرآة التي تعلو الحوض المعدني الصغير في دورة المياه. أنا الآن أنحف قليلا، شعري لا زال قصيرا لا يغطي أذني، لماذا وجنتاي متوردتان هكذا؟ ليستا متوردتين بل إن لونهما أحمر، آمل ألا أكون مريضة، كحَّلت عيني وصففت شعري وعدت إلى مقعدي.

ربطنا أحزمتنا، وبدأت الطائرة تستعد للهبوط. وعلى البعد بدت القاهرة كمدينة مستحيلة من عناقيد ضوء مستوحد وسط بحر الظلام الصحراوي. لم أر المدينة من الطائرة في

الليل قط. وأنا صرت اثنتين: واحدة مقيدة إلى مقعد طـــائرة محلقة في سماء المدينة، وأخرى على أرضها مثبتـــة فيهـــا كجذع شجرة أو كحجر في جدار. وعيناي الناظرتان عبـــر زجاج النافذة الصغيرة تحدقان عبر الظلام والضوء بحثا عن النيل الذي لا تراه وتعرف أنه هناك. وتقترب الطائرة مـــن ممرات المطار حتى تلامس عجلاتها الأرض لتنـــدفع فـــي سرعة مفاجئة ثم أخيرا تتوقف وأقوم مـــن مقعـــدي، ألـــبس معطفي بهدوء كأن باب الطائرة لن يفتح بعد لحظـــة، كـــأن الحاجز الحديدي للمنطقـــة الجمركيـــة لا يفضـــي للمدينـــة والأحباب. أسير بهدوء مع الآخرين باتجاه باب الطـــائرة... كأن قلبي لا زال معي.

٥

الطريق نفسها والحركة الوئيدة نفسها. أجلس في الظلام منكمشة أحدق في الحركة الرتيبة لمساحات المطر على الواجهة الزجاجية العريضة للأتوبيس. أمطار غزيرة وليل موغل. لم يعد في الأتوبيس إلا السائق وأنا، وهذا المطر لا ينتهي ولكن الطريق التي بدت عقابا أبديا توشك أخيرا على الانتهاء. أقوم من مقعدي وأقف بجوار السائق أقول له:

- سأقف في المحطة!

لم يخطر ببالي قط أن السائق قد يرفض طلبي، ولكنه يمر من أمام برينس هاوس ويتجاوزه ثم ينحرف يمينا إلى شارع آخر ولا يتوقف إلا في المحطة المقررة. ينزل ويفتح بطن السيارة ويسلمني حقيبتي دون أن يفتح أحد منا فمه كأننا في مشهد تمثيلي صامت، ثم يركب الأتوبيس ويمضي.

لا بد إذًا مما ليس منه بد. أحمل حقيبة السفر في يد وحقيبة يدي في اليد الأخرى وأسير بحذر شديد. الأرض مغطاة بطبقة زجاجية رقيقة من ماء المطر المتجمد بفعل البرودة، والمطر المنهمر صار بردا، وأنا أخشى أن تزل

قدمي فأسقط على ظهري. الساعة تجـــاوزت الواحـــدة بعـــد منتصف الليل. أسير بضع خطوات ثم أقف واضـــعة حقيبـــة السفر على الأرض ثواني ثم أواصل.

في الأتوبيس، في الطريق من بوسطون، بدا لي بؤســـي مكتملا. كنت شديدة الإرهاق بعد يوم طويل من السفر بدأتـــه قبل السادسة صباحا في انتظار السيارة التي تقلني مع غيري من الركاب من مقر الشركة الأولمبية في أثينا إلى المطـــار. أقلعت الطائرة في التاسعة صباحا ووصلنا نيويورك بعد أكثر من عشر ساعات من الطيران المتصـــل. هبطـــت الطـــائرة متأخرة ورحت أركض لاستلام حقيبتي والانتقال إلى مبنـــى آخر لكي ألحق بالطائرة المسافرة إلـــى بوســـطون. أقلعـــت الطائرة ثم هبطت وحملتني سيارة أجرة مـــن المطـــار إلـــى محطة الأتوبيسات المركزية حيث ركبت آخـــر الســـيارات المغادرة إلى أمهرست.

وأخيرا وصلت إلى الباب الخلفـــي لبـــرينس هـــاوس. أخرجت المفتاح من حقيبتي فتحته ودخلت. وأنا أصعد علـــى الدرج إلى الدور الثاني حيث حجرتي بـــدت لـــي الجـــدران المصبوبة من الأسمنت المخلوط بالرمال والحجارة الصغيرة

رمادية بشكل قابض، "غريب أنني لم ألحظ مدى كآبة هــذه الجدران من قبل! " قلت لنفسي وأنا أتجه عبر الممر الطويل إلى حجرتي. ولكني قلت أيضا وأنا أدير المفتاح فــي بــاب الحجرة: « على الأقل هنا تدفئة والأرض مغطاة بالســجاد لا تثير الخوف من السقوط المفاجئ وانكسار ساعد أو ساق ».

ولكن ما إن أضأت النور ورأيت الحجرة حتى رأيــت أيضا أن زيارتي للقاهرة قد صارت ورائي، ورائي مباشــرة في وقت يتعين عليّ فيه أن أتقدم في الطريق الممتــدة فــي الاتجاه المعاكس... على الأقل لشهور طويلة قادمــة. « الآن عليّ أن أنام! » قلت وأنا أقلب في الرسائل التي وصلتني في غيابي واستلمتها زميلتي ووضعتها بعناية على مكتبي قبل أن تسافر هي الأخرى لقضاء العيد مع أهلها. « الآن علــيّ أن أنام ». كررت لنفسي وأنا أنظر إلى الساعة التي تجــاوزت الثانية. بدا لي جو الغرفة خانقا. فتحت النافذة. « ليت زميلتي هنا! » جلست على السرير دون أن أبدل ملابسي وأنا أفكــر أنه مرة أخرى صار عنواني ٢٢٤ برينس هاوس، جامعــة ماساشوستس.

رحت أعيد ملابسي من حقيبة السفر إلى الدولاب وأنا أفكر أنه بهذا تكون دائرة السفر قد أغلقت ذهابا وعودة ولم يبق أمامي سوى بدء جديد. أخرجت شالين قطنيين أحدهما برتقالي والآخر أزرق، قلت وأنا أطويهما: البرتقالي لسوزي والأزرق لآنَّا، ووضعتهما في أحد الأدراج. ما إن أغلقت الدرج حتى بدا لي أن شيئا من رائحة البخور ما تزال عالقة بهما. كنت قد اشتريتهما قبل سفري بأيام من خان الخليلي. فتحت الدرج ثانية وانحنيت عليهما. التبس الأمر عليّ، لم أعرف إن كانت الرائحة بأنفي أم فيهما. لماذا تباغتني رشاقة مئذنة مسجد الحسين في كل مرة أراها كأنني لم أرها أبدا من قبل؟ ولماذا يعادوني الإحساس نفسه بأنين منفية من تاريخ الأزهر كلما لمحت أفاريزه ومآذنه ولو في الخيال؟ جلست على حافة سريري، عند العمود يجلسون، كل مجموعة تحيط بأستاذها، تنصت إليه، وتملأ دلاءها وتروح إلى جفاف الأرض ترويه. وأنا الحبيسة في تاء التأنيث لم تخط قدماي العاريتان أبسطة المسجد الألفي إلا كزائرة غريبة، ولا أستند ظهري إلى عمود رخامي بباحته، ولا قلت ظهيرة صيف في ظلّه أحلم بالممكن والمستحيل، ولا دعوت مع الداعين لنصرة

قائد في الحرب أو بسقوط طاغية من الحكام. قلت هذا الألفي تاريخ مغلق دوني.

قمت لأفتح باب الحجرة، كانت إحدى زميلاتي بالبيت جاءت تسلم عليّ. ذهبت وعدت إلى حقيبتي أعيد ما بها من ملابس إلى الدولاب، وحين انتهيت أقفلتها ووضعتها تحت السرير. الآن علي أن أرسل بالأفلام للتحميض. أمسكت بثلاثة مظاريف، كتبت عليها عنوان مكتب تحميض الصور. بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر تصل الصور بعد تحميضها. صور لي ولمريد ولأصدقائي، صور ونحن نجلس بجوار النيل ونحن نعبر الطريق ونحن في البيت، صور التقطتها في أثينا لمدرجات مسرح ديونسيوس وللأكروبوليس ولأعشاب خضر يانعة تنبثق من بين أحجار أرضية المعبد العتيق، صور للشمس الغاربة على أعمدة معبد الإله بوسيدون إله البحر في رأس سوينون حيث لقاء البحر الأبيض ببحر إيجه. كيف ستبدو اللحظات والمشاهد قد تثبتت نهائيا داخل الصور؟

كان معي آلة تصوير أصغر من حجم الكف ورحت أصور بها المشاهد في فرح طفولي ليس فقط لأن الآلة كانت

جديدة، ولكن أيضا لأنني كنت فرحة مقبلة. رغم ذلـــك لـــم أجرؤ على تصوير شيء مـــن معـــرض الغنـــائم بـــأرض المعارض بالجزيرة حيث عرضت الصواريخ والدبابات التي خلَّفها الإسرائيليون شرق القناة، وحيث شيد نموذج مصـــغر من خط بارليف يشرح عليه جندي أســـمر صـــغير الســـن خطوات اقتحام الجنود المصريين للساتر الإسرائيلي.

بدت الدبابات، في ضوء شمس ساطعة، لامعة ومتوهجة وقد اعتلاها عشرات الأطفال بملابس زاهية وراحوا يلعبون في صخب. وكأن الدبابات هي أرجوحـــات العيـــد الملونـــة والمزينة بالشرائط الورقية التي تنصب في المناســـبات فـــي الساحات الشعبية. والجو الاحتفالي في المكان يصل للقلـــب فينقسم، هذا نصيب الحزن وذاك للفـــرح ورجـــال الرمـــاد الجوف يعلقون الأوسمة ويقايضون دم الجنود وتاريخ الـــبلاد بحفنات من القش تصلب أعوادهم المتهاوية. قال صديقي:

- احتفظي بشيء من مرارتك للغد، فالبقية تأتي!

كان مريد قد احتفظ لي بكل الجرائد التي صدرت فـــي تلك الفترة. ومن عشرات الأعداد التي وضعها أمامي لم يكن قد وصلني في أمهرست إلا عددان من « الأهرام » بعد أكثر

من شهر من صدورهما. اطلعت عليهما بالمكتبة التي كانت تصلها الجريدة بشبه انتظام في الظروف العادية. كان الوقت مساء والمكتبة مضاءة بمصابيح النيون وأنا أقرأ بتوجس نص خطاب للسادات. انتهيت من قراءة الجريدة وقد تمكن مني خوف شديد، غادرت مكاني وقبلتي باب المكتبة للخروج، سمعت صوتا يكرر اسمي. إنه زميل مصري من زملائي، بادرني:

ـ خير، هل أنت مريضة؟

- كنت أقرأ الأهرام. يقول « ياخدوا عشرة كيلو من عندي! ».

- من الذي يقول؟

- السادات، كنت أقرأ خطابه، إنه يتكلم عن الأرض، كأنها ماله الخاص يتصرف بها كما يحلو له!

دعاني زميلي لاحتساء كوب من القهوة ولكني اعتذرت، فقد كنت أريد العودة إلى حجرتي لكي أختلي بنفسي وأحاول أن أفهم إذا كان ما قرأت هكذا مخيفا أم أنها الغربة تتضخم الأشياء فيها.

ولم تكن الغربة السبب. قال لي مريد: « منذ ألقى السادات خطابه في ١٦ أكتوبر يعلن وقف إطلاق النار واستعداده للتفاوض، بدا واضحا معنى الحرب وفي أي سياق اتخذ قرار خوضها. قلت لأصدقائي هنا ونحن نشاهده يلقي خطابه في التلفزيون، إنني أشم رائحة كريهة فقالوا إنني سريع الانفعال، أبالغ في كل شيء. ويوم ١٨ التقيت بصديق من الكتَّاب فبادرني قائلا: « أليس ما حدث يا مريد رائعا؟ » فقلت له: « إنه مخيف! » قال: « لا تكن غرابا! ». فقلت: « أرى ما يستحق أن أنعق عليه، فليكن، أنا الغراب! ».

وألبس معطفي وأغادر برينس هاوس أستنشق بعض الهواء البارد فالقلب ثقيل والعقل مثقل. أسير في الشوارع الشتائية العارية إلا من ثلوج متراكمة على الجانبين حتى أصل إلى مركز البلدة، وأدخل إلى أول مقهى في طريقي، أجلس على أحد الكراسي العالية وأسند ساعدي على العارضة الخشبية الممتدة، وأطلب من النادلة كوبا من القهوة، أفتش في جيوبي لعلي أجد قرصا منسيا من الأقراص المسكنة لآلام الرأس، وأضع يدي أمامي أحدق في الخاتم المعدني الذي اشتريته من معرض الغنائم وقيل لنا إنه من

حطام الطائرات الإسرائيلية، أحدق فيه فـــي بنصـــر يـــدي اليسرى ملاصقا لخـــاتم الـــزواج وأنتظـــر كـــوب القهـــوة الأمريكية.

بعد يومين من وصولي، بدأ معظم الطلاب يرجعون إلى قواعدهم للانتظام في فصل الربيع الدراسي الممتد من بدايـــة فبراير حتى نهاية مايو. وعاد للحرم الذي بدا قبـــل يـــومين مقفرا شديد البرودة صخب الوجود الطلابـــي. وفـــي اليـــوم المحدد للتسجيل في « الكورسات » عم المكان حالـــة مـــن التيقظ والحيوية تشارف الفرح، هل هي حيوية هـــذا العـــدد الهائل من الفتيان والفتيات الـــذين يثرثـــرون ويتضـــاحكون ويتجادلون أم أنها بهجة اللقاء بالصحاب والأمـــاكن أم هـــي البدايات هكذا دائما؟ الطلاب يروحون ويجيئون في ممـــرات الحر وردهات المباني ويحتشد عدد كبير منهم فـــي المبنـــى المخصص للتسجيل يقفون في طوابير، كل في انتظار دوره.

هذا الفصل الدراسي أيضا سُجلت في أربعة «كورسات» «كورسات» في الأدب الأمريكي الأسود و «كـــورس» فـــي الأدب النيجيري و«كورس» في نظرية الأدب الرومانســـي، ملأت الاستمارات وسلمتها ثم اتجهت إلى المبنى المخصص

لبيع الكتب المقررة. أخذت ما يخصني من كتب وبعض الكتب الأخرى أيضا لم أستطع مقاومة إغراء شرائها، ووقفت في الطابور في انتظار دوري لدفع الثمن. الكتب المصفوفة على أرفف خشبية وعلى الأرض يعلو كل مجموعة منها لافتة تحمل اسم القسم ورقم «الكورس» والمكان تعيدني إلى محل بيع الكتب بالمدرسة التي كنت أدرس بها وأنا طفلة. في الدور الأرضي محل كبير يبدو، وهو الممنوع علينا دخوله والملىء بالكتب الجديدة والكراسات والأقلام والألوان، قبو سحري مستحيل، نقف عند أعتابه نلمح من شباك له قضبانا حديدية بعض كنوزه، ونطلب هذا الكتاب أو ذاك لشرائه. وفي كل عام قبل بدء السنة الدراسية، يقف أولياء أمورنا في طابور طويل بالدور الأرضي أمام عارضة خشبية تسد باب المحل ليشتروا لنا الكتب المقررة. يدفع أبي ثمن الكتب. وأعود فرحة إلى البيت بحقيبتي الجلدية وقد انتفخت الكتب ذات الرائحة المميزة. في البداية كانت الصور هي التي تستهويني، ثم عاما بعد عام أخذت الصور تقل ورحت أروّض نفسي على قبول الكلمات التي بدأت أفك رموزها. ولكن دائما، سواء

توفرت الصور أو غابت، كنت أحب رائحة الكتب الجديـــدة حين أقلّب صفحاتها فتصل الرائحة تلقائيا إلي أو أقرب أنفي قاصدة من الورق. وللكتب القديمة أيضا رائحة نفاذة، تختلط بذرات التراب في الغالب، تملأ أنفي وأنا أبحث عن العتمـــة النسبية بين الرفوف المثقلة لمكتبة جامعة عـــين شـــمس أو جامعة القاهرة أو الجامعة هنا. ولكن هذه الرائحة مختلفـــة، أحبها وهي تنفذ الآن إلى أنفي ورئتي، وأضع الكتب المقررة التي اشتريتها في كيسين بنيين كبيرين من الورق المقوى ثم أخرج إلى الطريق.

كنت لا زلت أتأمل كتبي الجديدة المبعثرة حولي فرحـــة بامتلاكها حين دق جرس بـــاب حجرتـــي ودخلـــت إحـــدى صاحباتي البورتويكيات صـــاخبة هـــذا الصـــخب اللاتينـــي المحبب، وقالت بلهجة آمرة:

- لا تتناولي عشاءك الليلة، لأننا سنتعشى بالمجان!

قلت لها ضاحكة:

- هل معنى ذلك أنك: اكتشفت ملجأ لرعاية الطلاب؟

- مطاعم الجامعة مفتوحة بدءا من اليوم ولكن المشرفين لن يطالبوا أحدا ببطاقة الاشتراك، لأن الإدارة لم تنتـــه

من إعداد البطاقات. ونحن لا ننوي الاشتراك، ولكننا سنذهب لتناول وجبة بالمجان. موعدنا الخامسة.

وقبل أن أفتح فمي كانت قد أغلقت الباب واختفت.

وفي الخامسة نزلنا من برينس هاوس متوجهين إلى المطعم الأقرب للبيت. كنا عشرة طلاب من ستة بلدان مختلفة جمعتنا الغربة والصحبة وقرار دعوة أنفسنا على العشاء على حساب إدارة الجامعة. وكانت فكرة الأكل بالمجان في الولايات المتحدة حيث كل شيء يكلف نقودا، كفيلة بإثارة حالة من الفرح الطفلي العام. قالت إحدى الصديقات: قلت لتريزا البولندية أن تأتي معنا فأبدت دهشة شديدة وقالت لي: لا يصح أن نفعل ذلك. هذه سرقة، هل تصدقون! وكانت دهشة الجميع بسلوك تريزا لا تقل عن دهشة تريزا بسولك الجميع.

وقفنا في انتظار دورنا في موكب مستقل بذاته داخل الصف الطلابي الطويل، ثم حمل كل وجبته وجلسنا حول مائدة كبيرة اتسعت لنا جميعا.

في الفصل الدراسي السابق كنت أتناول في مطاعم الجامعة وجبتين يوميا باستثناء أيام السبت والأحد ثم صرت،

بعد أكثر من ثلاثة أشهر من الأكل فيها، لا أطيق دخولهـــا. تبئسني جلستي وحدي وأنا أتناول الأكل كأنني محكوم علـــيّ بالعُزلة، وتستفزني الوفرة غير العادية للأكل وكمية الراجـــع منه الذي يُلقى به في القمامة. ولكنني وأنا جالسة بين هؤلاء الصحاب صرت مثلهم فرحة ومقبلة وصـــاخبة وكـــأن فـــي جلوسنا هكذا معا وعدا تلقائيا بتآزر، كلنا في وحشة الغربـــة نحتاج له، لم يقل أحد منا شيئا عن ذلك. إلا أنه يبـــدو أننـــا جميعا التقطنا ذلك الوعد وتشبثنا به، فرحنا بعد ذلـــك كـــل أسبوعين أو ثلاثة، أو كلما جدت مناسبة، نقيم حفـــل عشـــاء جماعي في إحدى الحجـــرات المخصصـــة للدراســـة فـــي برينس هاوس. نلصق المكاتب في بعضها فتصـــبح مائـــدة ممتدة كموائد الأفراح، ننســـق عليهـــا الأطبـــاق والأكـــواب الكرتونية والملاعق والشوك والسكاكين البلاســـتيكية وفـــوط الورق، ووردة هنا أو هنا، ثم يـــدخل صـــاحب الـــدعوة أو صاحبتها مع مرافق أو مرافقين حـــاملين صـــواني الأكـــل الساخن من المطبخ. موكب صغير يلقى التهليل والبشر. هذا الأكل المطهو في ورق الموز. وذاك الـــروم البورتـــوريكي الأبيض الممزوج بماء جوز الهند وعصير الأناناس جغرافية

تدعونا ندخل إليها بصحبة الأبناء وننتهـــي وهـــذه الباميـــة المطبوخة باللحم والطماطم، وتلك الحلوى الشرقية أعدها في زهو الجدة تطبخ للأحفاد – أنا التي لم أحب الطهو يومـــا – وأعرف وأنا أحملها لأضعها على المكاتب المتلاصقة أننـــي أمنح نفسي في الغربة، وأمنحهم، مساحة من الوطن البعيـــد أسكن إليه ويسكنون.

٦

مارس في البدء، ومريد يكتب لي من القاهرة عن خطى الربيع والصيف فيه. وأنا هنا أستيقظ في الصباح أشهد تساقط الندف الثلجية الناعمة والأرض لا زالت تسكن الأبيض، أراقبها من خلف الواجهة الزجاجية لحجرتي ويفاجئني أنني أحب المشهد. أغسل وجهي وأشرب قهوتي وألبس معطفي وأذهب. هذه المساحة الممتدة ذات المباني الكثيرة التي بدت لي ساعة وصولي كمتاهة إغريقية أستعيض فيها عن خيط آريان الأسطوري بخريطة للجامعة تعرّفني بالجهات والأماكن، صرت الآن أعرفها وآلفها، من العمارات الحديثة المتجاورة المسماة بالأبراج لعلوها الشاهق والتي يسكنها آلاف من الطلبة ذات السقوف القرميدية والتي لا يتجاوز أي منها الأربعة طوابق في الشمال الشرقي، وبينهما تمتد الجامعة بمبانيها المتعددة التي أنشئت على مدى عشرات السنين منذ تأسيسها في منتصف القرن الماضي.

حين وصلت إلى الجامعة أواخر الصيف بدت البركة في قلب الحرم الجامعي كوجود خيالي فزَّ في حكاية من حكايات الأطفال، تنعكس في صفحتها المترجرجـــة صـــورة البجـــع السابح فيها، والشجر المحيط بها، والكنيسة الصغيرة بســـقفها القرميدي الداكن وبرجها المدبب. ولكن مـــاء البركـــة، فـــي صقيع الشتاء لا يعكس إلا بياضه. والكنيسة الحجرية تغطـــي سقفها وبرج ناقوسها الواحد الثلوج، وراحت عـــن جـــدرانها الرمادية الداكنة خضرة اللبلاب الذي لم يبق منه إلا فروعـــه الجافة تلتف صاعدة حول الحجارة العتيقة. الكنيسة و «الكلية الجنوبية» المواجهة لها والمبنية بذات الحجارة هما الأصـــل في المكان وأقدم ما فيه، أما المكتبة المجاورة فهي أحدث ما في الحرم الجامعي.

بناء شاهق يجرح خصوصية المكان بشـــكله التـــابوتي المنتصب، وتتنـــافر حداثتـــه المعماريـــة وطوابقـــه الســـتة والعشرون مع كل ما يحيط به. قالت إحدى الصديقات بخبث ساخر:

- إنه ولع المهندس برموز الذكور!

فقلت لها وأنا أبتسم:

- بل هو الولع الأمريكي بأفعل التفضيل، تماما كاللافتات المعلقة في أسفل بناية الأمباير ستيت بنيويورك: «هذا المبنى أعلى من كذا، وأكبر من كذا!» من المؤكد أنهم ليسوا بحاجة لمكتبة من ستة وعشرين طابقا ولكنهم بحاجة لأن يقولوا لدينا أعلى مكتبة في المنطقة، أو في شمال شرق البلاد، أو في البلاد كلها!

كان مبنى كريها فعلا يثير علوه الشاهق دوامة هوائية مقيمة تجعل المرور بجواره أمرا مزعجا. أما من الدخل فكان بالمكتبة العديد من التسهيلات، منها توفر عدد هائل من الكتب والمراجع والدوريات وحتى استعارة أي عدد من الكتب في نفس المرة، وتوفر آلات التصوير الالكتروني وإمكانية التصوير بقروش زهيدة، ثم سهولة الحصول على المواد غير المتوفرة في مكتبات جامعات أخرى أو المكتبات العامة عبر قسم متخصص، وذلك بطلب استعارتها مدة محددة أو الحصول على نسخة مصورة منها.

قلت لنفسي وأنا أنتظر المصعد ليحملني إلى الدور الأرضي بالمكتبة: ترى أي زمن جائر هذا الذي يجعلني أقارن بين هذا التابوت الحجري وذاك الآخر العتيق كجذع

شجرة طاعنة في السن يحمي في دكنته خشونة نسغنا الحي؟ وأرى المبنى ذا المعمار الإسلامي كما يلوح لي وأنا أقتـــرب من ميدان باب الخلق. ثم تأتيني رائحته الرطبـــة المميـــزة، ودرجه المتآكل، ومصابيح النيون التـــي تضـــيء ممراتـــه وقاعاته صباح مساء، والمصاحف المفتوحة على صـــفحات منسوخة بماء الذهب والمعروضة في الممر الطويـــل الـــذي ضم الفهارس، ودورة المياه التي سقط الطلاء عن جـــدرانها والتي كلما دخلتها عدلت عن استخدامها وعـــدت أدراجـــي ملاحقة برائحتها الكريهة. وأعطى للشاب الأمريكي المسئول عن الاستعارة الكتب التي أريدها وبطاقتي فينجز الأمر فـــي دقيقتين عبر الشاشة الإلكترونية الصغيرة التي أمامه، ويعيـــد لي الكتب، وسرعة الرجل تنكأ الجرح وتقلب مواجع الانتظار الطويل لكتاب، والبحث المضني بين أرفف مكتبـــة جامعيـــة لم يمسح الغبار منذ شهور عن كتبهـــا. وارتبـــاك الفهـــارس وسوئها. دفعت باب المكتبة الزجاجي وخرجت متجهة إلـــى غرفتي في برنس هاوس وليس في رأسي سوى شبه عبـــارة تتكرر: « أي زمن جائر... » تجاوزت البركـــة والكنيســـة الصغيرة ومبنى الإدارة حين توقفت فجأة وقلت: « أنصـــفنا

الزمان أم جار علينا، ليست المسألة، المهم أن حملنا في الزمان ثقيل! ».

وضعت الكتب في حجرتي ثم عدت من الطريق نفسها مرورا بمبنى الإدارة والكنيسة والبركة والمكتبة، وفي نيتي تناول وجبة غداء سريعة بمركز الحرم حتى أكون في قسم اللغة الإنجليزية قبل الثانية استعدادا للذهاب إلى درس النظرية النقدية. كان الرجل الأمريكي العجوز ذو الجسد النحيل قد اقترح في لقائه الأول بنا – نحن الطلاب الخمسة المسجلين في « كورسه » – أن ننقل لقاءنا الأسبوعي إلى بيته توفيرا لقدر أكبر من الهدوء والألفة. وهكذا صرنا نلتقي أسبوعيا في القسم ثم ننتقل معا في سيارات ثلاث: سيارة الأستاذ وسيارتين من سيارات الطلاب عبر طريق جبلية متعرجة تخرج بنا من البلدة وتفضي في النهاية إلى بيت الأستاذ فندخله ونجلس حيث أعد كل شيء لراحتنا: مقاعد ذات طراز قديم وثير، مدفأة في الحائط تحترق الأخشاب فيها مثيرة دفئا استثنائيا في الغرفة الصغيرة، وغلاية كهربائية كبيرة للقهوة، حولها أكواب من الكرتون وطبق من أكياس ورقية صغيرة من السكر. يجلس « البورفيسور » وحده على

أريكة وأمامه مائدة مستطيلة تحمل أوراقه وكتبه ويروح يتحدث بصوت هادئ خافت، يربط ويقارن ويطرح التساؤلات. والحق أن الرجل كان متمكنا في تخصصه، ولكن الحق أيضا أن مشهد الثلوج في الخارج، ودفء الحجرة، وسخونة القهوة بعد وجبة الغداء، وصمت المكان المطبق إلا من صوت احتراق الخشب في النار، وقرقرة الغلاية كانت كلها تؤكد أن هذا وقت للقيلولة. وعبثا أحاول أن أتابع ما يقوله الرجل إلى نهايته فلا أفلح، وصوته لا يحول دون رغبتي الملحة في النوم بل يؤكدها. وحين أنجح في مغالبة نعاسي أظل غير قادرة على التركيز فيما يقوله الأستاذ، ألحق به في عباراته فتحملني العبارة وحدها إلى طريق مغاير ينأى بي عن عباراته اللاحقة. وهو يتحدث عن ما نقله «كولريدج» عن المثاليين الألمان وأنا أستعيد مقاطع من «قصيدة الملاح القديم». أنصت باهتمام إلى فاتحة ما يقول حول ما في نظرية «شيلي» النقدية من ثغرات ثم يروح عقلي يطرح القضايا النقدية التي تشغلني وأجتهد في الوصول إلى تعريف خاص بي لطبيعة الشعر ووظيفته. وكدت أضحك بصوت عال حين نظرت يوما إلى زميلتي الجالسة أمامي

فوجدتها شبه نائمة، وزميلنا الجالس على الكرسي المجـاور لها يغالب التثاؤب. وتذكرت حصة النوم في الروضة حـين كانت تطلب المدرّسة منا أن نريح رؤوسنا علـى سـواعدنا المتكئة على المكاتب. سوف أسميها إذن حصة النوم المقررة على طلاب الدكتوراه! والحق أقول إنه حدث مـرة أن لـم تراودني الرغبة في النوم إطلاقا في هذا الدرس الممتد مـن الثانية إلى الخامسة مساء حين جاء دوري بتقـديم مداخلـة مطولة حول النظرية النقدية للكتَّاب المثاليين الألمان!

ولكن محاضرة جوليوس لستر (*) كانت شـيئا مغـايرا بالرغم من كونها في الصباح المبكر أذهب إليها ولم أنفصـل بعد تماما عن غشاء النوم الشفيف. كان جوليوس رجلا نحيلا صغير الجسم تجاوز الثلاثين، له شعر أسود خشن وقصـير ووجه أسمر وفي إحدى أذنيه حلقة صغيرة لا يخلعها أبـدا. وما إن يدخل إلى القاعة ويخلع معطفه ويبدأ في محاضـرته

(*) كان جوليوس لستر عضوا بارزا في « سـنيك » (إحـدى المنظمات التي شاركت بشكل أساسي في الحركة السياسية السوداء في الستينيات)، وهو كاتب سياسي ، وباحث أكاديمي ، وجـامع للتـراث الشعبي الأسود ، ومغن وملحن، وله عدة كتب وأسطوانات .

حتى يؤخذ الطلاب بصوته الجهوري وإيقاع جملته ويحملهم على جناحيه كطائر هائل يعلو بهم، ويحلــق ويســلك فــي انسياب ويلف على غير توقع ويهوي كما لو كان سيسقط ثم ثانية يرتفع. وعيون الجالسين تكشف عن متعة المغامرة فــي حضرة الطائر الواقف في ثوب شاب نحيل يعلق حكاية شعبه المسبي حلقة في الأذن. والطائر حين يبدأ حديثــه لا يطيــق حذاءه فينحني يخلعه ويضعه جانبا، هكذا في كل مــرة، ثــم يستمر.

قدرت الرجل وأعجبت بقدراته وأردت الاقتــراب منــه أكثر ولكن الطائر - الرجل - لم يكن يفرد جناحيه هكذا في الطريق، بل يسير في انكماش الغريب، نفورا شاردا وحيدا. وفي حجرته بقسم الدراسات الأفــرو - أمريكيــة يســتقبل الطلاب بموعد سابق يقدم لهم العون فيه، ويأتي أحيانا بابنــه الصغير الذي يقوم هو برعايته يتركه جالسا علــى ســجادة الحجرة أمامه كرّاسة للرسم وكومة من الأقلام الملونــة فــي حين ينحني هو على كتبه وأوراقه على المكتب.

أوردت نشرة أخبار السابعة مساء فــي التلفزيــون أن ظاهرة التعري الجماعي آخذة في الانتشــار بــين طــلاب

الجامعات، وأن طلبة جامعة "نورث كارولينا" حققوا الرقم القياسي حين خرج أكثر من ثلاثمائة طالب وطالبة في يوم واحد يركضون معا وهم عراة تماما. ولما كانت نشرات الأخبار تُعدّ لكي تسمع ويستقبلها الناس ويتأثروا بها، فما مضى يوم إلا والإعلانات تغطي الجامعة بأن طلبة «ساوث ويست»، أكبر تجمع سكاني طلابي داخل الجامعة والذي منه برينس هاوس، قد قرروا إقامة حفل « ستريكنغ » أي تعرٍ جامعي على أن ينطلق المشاركون في الساعة الحادية عشرة ليلا من مركز الحرم الجامعي، يدخلونه ثم يعودون. وأثار الخبر كل من في الجامعة، من ينوون المشاركة ومن ينوون المراقبة. أما نحن مجموعة الأصحاب الغرباء على المشهد الأمريكي، فقد ضحكنا كعواجيز الفرح وقلنا: «لماذا لا نقيم نحن أيضا حفلنا الصغير الخاص، نشرب ونأكل ونرقص في قاعة الدراسة المطلة على أبراج « ساوث ويست» ولحظة والواقعة نطل من النوافذ فنشارك في الحدث المثير بالمشاهدة!».

قلت لصديقيّ الإيرانيين لما رأيتهما مدججين كلا بآلة تصوير:

- أرى أنكما ستلتقطان صورا منافية للآداب!

وضحت، فرد أحدهما ضاحكا:

- بل صورا تشهد على الزمان والمكان!

- الحق أقول لكما أن ما يشغلني أكثر من تعري هؤلاء الشباب بلا سبب مفهوم هو ما سيتعرضون له من برد قارس. وسيصبحون جميعا في الغد وقد أصابهم التهاب رئوي!

لم نتحدث في الأمر بعد ذلك بل رحنا نشارك في احتفالنا بالحديث والنقاش والثرثرة في موضوعات أخرى، متناسين الحدث – المحور لليلة حتى نسيناه فعلا.

«هاهم بدءوا يظهرون!» لا أدري من ذا الذي اتخذ من النافذة برج مراقبة وإنذار، ولكننا تحلقنا خلف النوافذ ننظر إلى موكب كبير من الطلاب العراة تماما إلا من الجوارب والأحذية يهرولون من أمام الأبواب الخلفية لبرينس هاوس. تساءلت إن كانت هرولتهم لشدة شعورهم بالبرد أم حرجا من عريهم غير المألوف. لم أر في حياتي مشهدا كهذا أو مقاربا حتى له، قلت:

- كان يجب أن ننزل لنشاهدهم عن قرب.

فقال صديقنا الألماني:

- ولكن الجو شديد البرودة.

وأجابتني آنّا ضاحكة:

- لم يفتك شيء إذا كان لديك الاستعداد الآن للنزول وراءهم ركضا!

كنا لا نزال متحلقين حول النوافذ نعلق على الموضوع حين دخلت علينا ماري وشيلا اللتان تسكنان الدور نفسه بصخب عاصف. قالت ماري بصوتها الأجش العالي:

- أمّا مشهد! لقد لبسنا معاطفنا ونزلنا، وانتظرنا خروجهم، ورأيناهم يمرون من أمامنا.

وضحكت بمزيج من العصبية والفرح المنفعل.

- لقد التقطت لهم صورا! كانت أبدانهم جميعا مقشعرة من شدة البرد.. مساكين! أما منظر الأولاد... يا إلهي!

وراحت تقهقه. أما شيلا فكانت تتحدث إلى مجموعة أخرى عن تقديرها لعدد المتعرين. كان من الواضح أنهم مئات. قالت شيلا بثقة:

- ليس أقل من أربعمائة!

في اليوم التالي جلست في قسم اللغة الإنجليزية مع أستاذ النقد النظري وإحدى الزميلات بانتظار باقي المجموعة للذهاب إلى بيت الأستاذ للمحاضرة. كانت جريدة الجامعة قد نشرت الخبر، وقالت إن عدد الطلاب قارب الأربعمائة، وصدّرت في الصفحة الأولى صورة لعدة فتيات عاريات أثناء ركضهن في الموكب. قال «البروفيسور» وهو يبتسم بهدوء «صرعة جديدة» وقلت لنفسي: «وما الذي يحرك هذه الصرعات الجديدة؟!».

كان الجواب واضحا في عدد اليوم التالي من «الديلي كولويجيان» حين سئل أحد المسئولين في شرطة أمهرست والتي تدخل الجامعة ضمن اختصاصها، فقال:

- لماذا نقلق؟ إن الطلاب يستمتعون بوقتهم... وهذا أمر صحي، المؤكد أنه أفضل من ذلك الهوس السياسي الذي استولى عليهم في الستينيات.

كانت الشرطة تريد للطلاب الاستمتاع بوقتهم هكذا جماعيا، لأن هذا يفيد، أما خروج فرد عن المألوف فلم يكن مطلوبا في شيء. ولذلك فقد قبضت الشرطة بعدها بيومين

على طالب عنّ له أن يركض فــي وضـــح النهـــار عاريـــا بالجامعة، قبضت عليه وأنذرته بالعقاب ثم أفرجت عنه!

٧

ما الذي يحدث حين تعلو في الفضاء فجأة تغريدة طائر بشير تكذب لسعة البرد وعري الأشجار وتقول إن الربيع أتى؟ وأفكر، وأنا بعد لم أغادر فراشي، بأني ألتقي الصباح عبر الواجهة الزجاجية العريضة، في المواسم، فواصل الزمن، وأتساءل إن كانت أقواسا تطلقنا أم أبواب سجن أم أننا الذين نختار؟ ظل الأبواب موت، والخوض صعب، وعيناي لا تكذبان (هذه المرأة الصغيرة خائفة وتقدم) والطفل الثاقب النظرات عمر حين عدت للقاهرة قال لأمه: «لماذا هي ساكتة هكذا، وعيناها مختلفتان؟» ولو أنني حجر! وزقزقة العصفور تقلّب جفاف الجسد وحاجة الروح للغياب. وأحمل من درج مكتبي الصور التي التقطتها أثناء زيارتي للقاهرة أتملاها ثم أعد قهوتي الصباحية، وأغتسل، وأستعد للخروج.

قالت لي صديقتي آنّا وهي جالسة معي في مقهى الجامعة معلقة على رغبتي في التقدم لامتحان التخصص الشامل بعد انتهائي من « الكورسات » في الصيف:

- لماذا أنت دائما في عجلة من أمرك، كأنك تريدين اللحاق بقطار؟

- هل تذهبين معي الأسبوع القادم إلى حفل « كاونت بيسي » سيعزف هنا في الجامعة.

- أذهب ولكنك لا تجيبيني، كنت أقول إنك دائما تركضين كأنك تريدين اللحاق بقطار.

- أو كأنني خائفة من أن يدهمني قطار يا آنّا!

قررت التقدم بمشروعات التخصص الثلاثة بأسرع ما يمكنني حتى إذا وافق عليها مجلس الدراسات العليا بقسم اللغة الإنجليزية تقدمت للامتحان في الوقت الذي يحدده فأكون بذلك قد اجتزت نصف المسافة. ومرة أخرى رحت أركض في حركة محمومة من أجل إنجاز ما أريد. كان عليّ أن استكمل بعض القراءات الأساسية قبل أن أستطيع كتابة اقتراحات التخصص بما يرضيني، فيما أواصل حضور الدروس المقررة وإعداد ما يتطلبه الأساتذة؛ مداخلات

وأبحاث. هكذا قضيت النصف الثاني من شهر مارس وشهر أبريل كله وأنا موزعة بين قاعات الدرس ومكتبة الجامعة. عمل يومي متصل هو إقامة تتحدد بين ملايين الأحرف المتشابكة في كلمات متراصة في أسطر تتعاقب على ورق بعقد الصلة بين المحدود والبحر. يدعوني البحر فأروح إليه موزعة بين وجل المرأة الصغيرة وزهو المقتدر. وكلما توغلت اتسع البحر أمامي عميقا ومتراميا يحيرني ما بين حرفة الغواص والربان. ثم يداهمني شعور مبهم بأن ضوء النيون في المكتبة، والغبار الدقيق المختلط بصفحات الكتب القديمة، وشبه العتمة بين أرفف الكتب في الأدوار العلوية، خانقة، وإن هذه المكتبة المرتفعة ستة وعشرين طابقا فوق الأرض تحمل شيئا من عتمة قبو أرضي. ربما كانت مقبرة بحرية وإلا فلماذا باغتني المكان في ضوء الشمس الساطع حين خرجت إليه ذلك اليوم لتناول الغداء؟ ولماذا ارتبكت وملأت الدموع عيني وأنا أخرج من مكتبة جامعة أمهرست عند الغروب حين سمعت صوتا ناعما ينبعث من أوتار غيتار؟ تتبعت الصوت فوجدت شابا يجلس على حجر يواجه التلال الدخانية في الأفق. كانت السماء صحوا ودفء

الموسيقى يجاوب دفئا استثنائيا فـــي ذلـــك اليـــوم الربيعـــي المتوهج بالشمس العارية، خلعت حذائي وسرت على العشب أستمد من اليابسة تحت قدمي العاريتين ثباتا وطمأنينة.

كانت زيارتي لبوسطون دائما خاطفة ولغرض محـــدد، ومع ذلك فقد ألفت المدينة وراقت لي أبنيتهـــا القديمـــة ذات السقوف القرميدية، ومساحات الخضرة فيها، ولوحات التأثير بين الأوروبيين في متحف فنونها الجميلة، وتمثـــال هنـــدي معجز في إحدى قاعاته. ثم إن بالمدينة نهرا، وأعتـــرف أن نهرا في المدينة يكسبها في القلب مكانـــا. ورغـــم زيـــاراتي المتعددة لم أكن قد زرت أيـــا مـــن جامعاتهـــا ولا آثارهـــا التاريخية المرتبطة بالثورة الأمريكية. وحين سألني زميلـــي الألماني الفارع الطول إذا كنت أحب أن أرافقه هو وصديقته اللا لقضاء يومين في بوسطون قبلت. كـــان الطقـــس رغـــم برودته ربيعيا، وقد ذابت الثلوج كاشفة عن مساحات العشب، والأشجار تحمل على أغصانها تلك الكريات الدقيقة الصـــلبة التي قد تفاجئ المرء بالأخضر في أي وقت. وكانت هذه أول زيارة سياحية لي للمدينة، وتولت اللا مهمة إرشادنا، قررت عنا أن توزع اليومين اللذين سنقضيهما فـــي المدينـــة فـــي

مشاهدة مواقعها التاريخية وزيارة جامعة هارفرد والتسكع في الساحة المواجهة للحـــرم الجــامعي (تســكع مخطــط لــه ومحسوب حسب برنامج اللا!) وتناول فطيرة تفــاح مــع القهوة بالحليب في «البيوتر بــوت» لأنـــه مقهـــى شـــهير وتاريخي (!) ثم تناول وجبة عشاء في اليوم التالي للوصول في مطعم صيني يقدم طعاما شهيا – حسب معلومـــات الــلا وبرنامجها غير المدون – يطل علـــى نهــر الشـــارلز فـــي كامبريدج.

تركنا أمهرست في الثامنة من صباح الســبت فوصـــلنا بوسطون بعد ذلك بساعتين، بدأنا بترتيب أمر مبيتنـــا فلمـــا انتهينا من ذلك اقترحت اللا أن نبدأ بأثر الحرية.

- وما هو أثر الحرية يا اللا؟
- إنه طريق يمر بأهم المواقع الأثرية المرتبطة بأحـــداث الثورة الأمريكية.

لم أدر في الماضي وما زلت لا أدري تماما لماذا لم تُثر الثورة الأمريكية حين درسنا عنها في مقرر التاريخ بالمرحلة الثانوية اهتمامي أو خيالي، ذلك رغم حبي للتاريخ وتـــوهج خيالي بأحداثه الجسام. كان في حـــديث الثـــورة الفرنســـية

عشرات التفاصيل التي تملكني كما الطفلة المنصتة لحكايات ألف ليلة وليلة، سقوط السجن العاتي، حشود الجائعين، بلاهة الملك، براعة الخطباء، الملكة المسوقة للمقصلة، وصعود الكورسيكي ذي الجبة العريضة، شعار الكلمات الثلاث والقبعة المثلثة والشارات على الصدور والتقويم الجديد، ونار الفعل التي تسري كالريح الغربية يكتبها الشاعر * في الناحية الأخرى من المحيط. ولماذا لم تقل لي هذه الثورة الأمريكية شيئا ولم أجد فيها – وأنا مراهقة صغيرة أتعلم في مدرسة ثانوية للبنات – غير عبء حفظ التواريخ وعدد صناديق الشاي التي ألقي بها في المحيط وقيمتها بالجنيهات.

- هيا بنا إلى أثر الحرية يا اللا!

سرنا متتبعين خطًّا محددا بالطلاء الأبيض يمتد من قلب مدينة بوسطون حتى الشاطئ حيث اندلعت أحداث «حفلة الشاي» عام ١٧٧٣ مرورا بموقع «مذبحة بوسطون» والكنيسة الجنوبية القديمة مقر الاجتماعات التي جرت بين قادة الثورة وبعض المشاركين فيها. كنت أسير على الخط الأبيض وأتمنى لو أنني أجلس في سلام بأحد المقاهي أتناول

* الإشارة هنا للشاعر الإنجليزي شيلي وقصيدته للريح الغربية .

كوبا من القهوة الساخنة. هل كان البرد القارس أم صوت اللا النحاسي المنفر الذي جعلني أنكمش بعيدا؟

المؤكد أنني تحولت عن المشهد ككل بعد أن قادنا الخط الأبيض إلى قطعة أرض خالية وأعلنت اللا:

- هنا قتل خمسة أشخاص على أثر مناوشات بين الأهالي والعساكر الإنجليز في مارس عام ١٧٧٠، وهذه الواقعة هي المعروفة بمذبحة بوسطون.

ولم يكن قد مضى أكثر من بضعة أشهر على مذبحة الملعب الرياضي في شيلي عقب انقلاب بينوتشيت العسكري على حكومة آييندي المنتخبة. خمسة آلاف شخص حشروا بالملعب الرياضي انتظارا للمذبحة التي راحت تمتد بعد ذلك بطول البلاد. ولم يكن دور الولايات المتحدة في هذه المذابح ليخفى على أحد.

تُرى أفي الزمان القريب أم الأبعد يزور الوافدون موقع مذبحة الآلاف بسنتياغو حيث قطعوا يدي العازف المغني فيكتور هارا قبل أن يقتلوه؟

واللا تحرك فكيها بحماس لا يكل، وصديقها الألماني يناسبها بلادة، وقدماي تتبعانهما على الخط الأبيض الذي لا

ينتهي، أفكر في مذابحنا التي لا تنتهي. تــرى كــم مذبحــة ننتظر؟ لقد أسلمتنا الأيام الستة لمذابح الألف قتيل في يونيــه ١٩٧٠ التي راحت تخفت وتتوارى أمام مذابح أيلول. وقبــل تمام العام، ولابسات الحداد لم يخلعنه بعد ولا اعتدن غيــاب الغيَّاب، داهمتهم أحداث جرش والهزيمة من جديد. ترى كــم مذبحة ننتظر، وكم حربا يتعين علينا خوضها، وكم منا مــن يتعين عليه أن يصعد للموت هكذا كنبي كما فعل عبد الخالق والشفيع؟

- لا أريد الاستمرار في السير في هذا الأثر، إنني ذاهبة!

عدت من بوسطون بنسخة ورقية مصغرة مــن لوحــة «الغرنيكا» لبيكاسو علقتها في مواجهة سرير ببرينس هاوس. ولكني حين ذهبت بعد ذلك بفترة قصيرة إلى متحــف الفــن الحديث بنيويورك حيث تُعرض اللوحة الأصلية عرفــت أن النسخة المصغرة تتنافى مع الحضور العبقري للأصــل بــل تكاد تنكر البطاقة البريدية المعمار المعجز للكتدارئيــة التــي تحمل صورتها. كانت اللوحة تغطي الجدار المواجه كــاملا وعلى الجدران المحيطة رسوم بيكاسو التي بدأ يخططها فور سماعه خبر قصف القرية. وفي كل الرســوم تتكــرر تلــك

المرأة العاصفة. مركز الصورة هذه المرأة أم هكـذا العمـل العبقري دائما تتعدد المراكز فيه؟ ويد الفـارس المقطوعـة والقابضة على زهرة بعزم نبي، أليست هي الأخرى مركـزا من موقعها بأسفل اللوحة؟ وتلك المرأة التي تنحني على ابنها القتيل بأقصى يسار اللوحـة تجـاوب فـي القلـب وجعـا.

هذه « الغرنيكا » تحمل همي وتجربتي، حملتها فـي قلبـي ونزعت النسخة المصغرة عن جدار الغرفة.

في أمهرست يبقى الربيع حيا خافت الحضـور حتـى نهاية أبريل. ثم يأتي مايو فتدخل الأرض وساكنو البلدة إلـى مساحات من الدفء والفرح ترتبط بالأخضر الجديـد علـى الشجر ونعومة رائحة الليلك التـي تتسـرب عبـر النوافـذ المشرعة، لا يكاد المرء في النهار يشعر بها، وفي المسـاء تصبح هي السيدة في المكان.

وحيث يطول الشتاء وتتراكم على الأرض الثلوج ويجف الشجر كأن لا أمل في عودة حياة إليه يكون لليوم الربيعـي المشمس بهجة ولادة طفل في بيت شاخ كل من فيه.

هكذا حين هل الشهر الخامس كـان الحـرم الجـامعي يتوهج بضوء الشمس وبصخب الطلاب الذين راحوا يحتفون

بمقدم الدفء واقتراب العام الدراسي من نهايته. كان العديد منهم قد بدءوا يتخففون من ملابسهم البعض يلبس الشورت، والبعض يسير عاري القدمين مستمتعا بنداوة العشب، بعض الأساتذة خرجوا بمجموعاتهم الطلابية من قاعات الدرس وجلسوا على العشب يكملون درسهم. وأصوات لآلات موسيقية تضبط وتعدّ يسمعها العابر من أمام الكنيسة العتيقة والتي تستخدم كمقر لفرقة موسيقية.

كان المكان يتألق بحيوية الاستعداد لعرس. ووجدتني أسير في الحرم الجامعي أجاوب البهجة في المكان. حملت إلى حجرتي فرعين من الليلك ووضعتهما في إناء زجاجي فارغ من أواني القهوة، ملأته إلى النصف بالماء ووضعته على حافة النافذة. تركت باب الحجرة مفتوحا وجلست إلى المكتب.

كنت قد انتهيت تقريبا من الأبحاث المطلوبة مني للفصل الدراسي وبدأت الاستعداد للامتحان الأَوَّلي الشامل للدكتوراه. بعد أن وافقت لجنة الدراسات العليا على المشروعات التي تقدمت بها وحددت يوم ١٧ يونيه موعدا للامتحان.

وبطول حياتي الدراسية لم تشكل الامتحانات لي لا موضوعا للخوف ولا مركز جذب يحدد مسار حياتي اليومية. ولكني في هذه المرة كنت خائفة أعايش خشيتي من الرسوب على مدار اليوم. كنت قد قررت أنني حين أنجح سأسجل موضوع الرسالة وأحمل معي بعض ما أحتاج من مراجع وأشرع في كتابة جزء من الرسالة في القاهرة ولا أعود إلى أمهرست إلا في يناير من العام التالي، واصلة بذلك عطلة الصيف بعطلة أعياد الميلاد، مرورا بفصل الخريف الدراسي الذي لن يكون مطلوبا مني فيه حضور أية دروس. وإذا رسبت؟ يتركني السؤال بائسة في المفترق كطفلة يداهمها الخوف أمام سيل السيارات الذي لا ينقطع من الطريق الذي يتعين عليها عبوره للوصول إلى البيت فتقف بلا حراك تملأ عينيها الدموع!

غادرت زميلتي في الغرفة الجامعة لقضاء الأجازة الصيفية مع أهلها. وكان شعوري بانفرادي في الحجرة مركبا، فزميلتي صارت توترني ببحثها الدءوب عن عريس وحبها العظيم للنوم، وغطائها الموصول بسلك كهربائي يدفئ الجسم ومكالماتها التلفونية لأمها في ولاية ثانية لتسألها:

«عندي صداع... ما العمل؟» ورغم ذلك افتقدتها، ليس لأنني فقدت مركز المتفرج الخبيث الذي يتسلى بالمشاهدة ولكن لأنني في الحق كنت أعرف مدى طيبتها وأحبها وآنس بوجودها.

كذلك غادر معظم ساكني برينس هاوس الذي كاد يخلو إلا من عدد قليل من الطلاب الوافدين أمثالي الذين يستعدون لامتحان أو آخر. وبدا الحرم الجامعي بعد حفل التخرج في أول يونيه خاويا تماما بل وموحشا.

ورحت أواصل الاستعداد للامتحان بالاطلاع على المراجع والدراسات التي تتناول مجالات التخصص الثلاثة التي سوف أسأل فيها. واستعضت عن القراءة في المكتبة بالقراءة في حجرتي إلا إذا اقتضت الحاجة غير ذلك. أقضي النهار وأنا جالسة أقرأ، وحين أتعب أذهب سيرا إلى أحد مقاهي الجامعة لتناول قطعة من الحلوى أو أستعير دراجة زميلة لي وأركبها إلى مركز البلدة.

كانت الطريق إلى الشارع الرئيسي بأمهرست جميلة، فالأخضر غالب، تزين حدائق البيوت الصغيرة المكونة من طابق أو اثنين أحواض من الزنبق الأحمر والأصفر. وفي

أحد المنعطفات شجرة يفاجئني لون أوراقها في كل مرة أراها كأني لم أرها من قبل. فمن أين لأوراق شجرة بهذا الأحمر الخمري؟ وأركب الدراجة حتى أصل إلى محل لبيع المثلجات وأشتري ثم أعود لمواصلة العمل.

ذهبت للامتحان صباح يوم ٧٤/٦/١٧. أحضر لي أستاذي رئيس لجنة الإشراف كوبا من القهوة وقال وهو يبتسم: «ليس في الأمر ما يوجب التوتر!» فانتبهت لكوني متوترة. كان الامتحان شفهيا واللجنة مكونة من خمسة أساتذة. بدءوا يسألون وأخذت أجيب. بعد ثلاث ساعات انتهى الامتحان وطلب مني الانتظار بالخارج.

جلست في حجرة مجاورة وقد داهمني شعور بالتعب. هل كان قلقا؟ بعد دقائق يخرجون من الحجرة ليعلنوا لي النتيجة، وقولهم يحدد مسألة سفري إلى القاهرة. هل أبدو شاحبة كما في تلك الصورة التي التقطت لي وأنا أقف بالرداء الجامعي الأسود بعد انتهاء مناقشة الماجستير ورئيسة لجنة الامتحان تقرأ النتيجة؟ في الصورة أبدو نحيفة وصغيرة كمراهقة هادئة المظهر وعيناها الواسعتان تنطقان بالقلق والذكاء.

وها هو الأستاذ العجوز بروغن أول من يخـــرج مـــن القاعة، يبتسم ويقول إنه قرأ رسالة الماجستير وإنه يعتقد أنها ممتازة. وأنا أنتظر أن يقول شيئا عن امتحان اليوم فهل ليس لديه ما يقوله إلا إطراء لعمل قديم؟ كنت مخطئة فقـد كـان على رئيس اللجنة أن يبلغني بالنتيجة، وقد خرج وهو يضحك قائلا:

- لا بد أنك مدّرسة جيدة يا رضوى لأنك مقنعة جدا في النقاش. مبروك! لقد نجحت. وقد صوّت أربعـة مـن أعضاء اللجنة بإعطائك امتيازا، وصوت واحـد بـأن تنجحي فقط، مبروك!

كانت الجامعة التي امتلأت قاعاتها وملاعبهـا بـآلاف الطلاب، قبل ذلك بشهر واحد قد أقفرت إلا مـن العشـرات وخيَّم عليها سكون ووحشة ورحت أعمل بانتظام في جمـع المادة العلمية التي سوف أحتاجها أثناء وجودي في القـاهرة، كنت أذهب كل صباح إلى المكتبة، أبحث عمـا أريـد مـن دوريات ومراجع ثم أحمله إلى جهاز التصوير لأصور مـا يفيدني من دراسات بها، وحين أعود إلى برينس هاوس، بعد

الظهر في الغالب، أتناول وجبتي المسائية مع القليلين من أصحابي الذي لم يسافروا.

وفي يوم خانق الحرارة من مطلع يوليه أخذت تتوافد على الجامعة عشرات السيارات الخاصة وسيارات النقل الصغيرة، وضج الحرم الجامعي فجأة بالصخب والحركة. «ما الخبر؟» سألنا فعرفنا أن إدارة الجامعة قد أجرت أحد الأبراج السكنية في « ساوث ويست » وبعض القاعات والملاعب للغورو ماهاراجي ومريديه. ولما لم يكن أحد منا قد سمع الاسم من قبل فقد رحنا نسأل عن الرجل وحكايته.

قالت زميلة أمريكية لنا إنه قد يكون أحد الحكماء الهنود كالغورو الذي درّس لها « كورس » التأمل في الفصل الدراسي السابق.

- كان الغورو يعلمنا كيف نقضي عدة دقائق دون أن نفكر في أي شيء على الإطلاق، يعلمنا كيف نتحكم في قدرتنا على إيقاف تيار أفكارنا تماما.

هل كانت المعرفة تنقصني أم أني كنت صائبة في حكمي على زميلتي الأمريكية بأنها صغيرة بلهاء وبأن

لأستاذها براعة المحتالين؟ لم أفصح عن ذلك ولكنني فقط حركت كتفي وقلت:

- لم آت إلى الجامعة، لكي أتعلم كيف أمنع نفسي من التفكير!

ثم تبدل وجه الجامعة بين يوم وليلة، إذ عجَّت بآلاف الشباب ذوي الهيئة الهيبية، الشعور المرسلة والملابس الكالحة الرثة والأقدام الحافية. وصارت لمقاهي الجامعة رائحة هؤلاء الشباب الكثيرين الذين لم تعرف أجسادهم الماء لأيام طويلة. وحول البحيرة، وعلى العشب هنا وهناك، استلقت مجموعات تفوح منها رائحة العرق والماريوانا. ولم يقتصر مشهد التقبيل على الزوايا، ولا هو اقتصر على فتى وفتاة هنا أو هناك. ورغم أن الجامعة إدارة وطلابا كانت تعترف بالجنسية المثلية، وتسمح للطلاب ذوي العلاقات المثلية بأن يكون لهم جمعية تمثلهم وتدافع عنهم، وحفلات راقصة خاصة تقام بين حين وآخر في أحد مقاهي مركز الحرم، إلا أن مشهد شابين يقبلان بعضهما في وضح النهار بالجامعة وسط الرائحين والغادين لم يكن بالشيء الشائع.

ولكن الجامعة في ذلك الأسبوع الأول من شهر يوليه عام ١٩٧٤ كنت قد تحولت إلى مستعمرة هيبية كبيرة تمارس فيها مظاهر حياة ما يسمى بالثقافة المضادة. ولم يكن كل الذين أتوا إلى الجامعة للالتقاء بصاحب الرسالة الهندي آتين من أماكن قريبة، فالبعض منهم قطع القارة من الشاطئ الغربي إلى حيث الجامعة بشمال شرق البلاد في رحلة برية استغرقت عدة أيام، والبعض أتى بالطائرة خصيصا للمناسبة، وكانت هناك طائرة خاصة حملت بعض المريدين من أمريكا الوسطى والجنوبية، هذا ما سمعناه!

ثم شاهدنا عمالا يقيمون عند الملاعب المترامية خلف أبراج « ساوث ويست » قبة ضخمة من الحرير أحيطت بعشرات الكشافات. « هنا سوف يجلس الغورو، ومن على تلك المنصة العالية المظللة بالقبة الدمقسية سوف يُطل على مريديه المحتشدين أسفل المنصة ».

وفي المساء حملنا أنفسنا، نحن الأغراب على المشهد الأمريكي والشهود عليه، فاتجهنا إلى حيث الملاعب. وقبل أن نقترب من المكان وصلت إلى أسماعنا موسيقى صاخبة فتساءلنا إن كان هناك حفل راقص بالقرب من المكان وإذا ما

كان الحفل بريئا أم يقصد به إفساد الاستماع إلى دعوة النبي الهندي.

هبطنا من أعلى التلة حيث الأبراج السكنية وبيتنا إلى مساحة من العشب الممتد. رأينا حشودا من البشر الجالسين على العشب، سبعة آلاف، عشرة آلاف، أكثر... وموسيقى راقصة تنبعث عالية من مكبرات صوت ضخمة موزعة في المكان راح مريدو الغورو الشرقي يستجيبون لها بالتمايل وهم جلوس أو بالرقص على إيقاعها.

توغلنا أكثر. بدا المكان كيوم الحشر غاصا بآلاف البشر بينهم عديد من المعاقين. بحثنا عن مكان نجلس فيه فوجدناه لصق شاب يضع جواره عكازتين كبيرتين. سمعت شخصا يناديني فالتفت. كانت سيدة أفرو – أمريكية من معارفي. قالت وهي تقترب مني وترفع صوتها لكي يصل إلى وسط الضجيج البابلي المحيط:

- المركب يغرق أم أن لك رأيا آخر!

وأطلقت ضحكة ضاع صخبها في الصخب العام وتركتني. ورحت أستعيد أبياتا من قصيدة «الأرض الخراب» لإليوت:

أي فروع سوف تنمو من هذا الركام الحجري؟
يا ابن الإنسان ليس في مقدورك أن تقول أو تخمن
فأنت لا تعرف سوى كومة من صور محطمة.

وأي فروع يا ترى سوف تنمو من هذا المشهد الأمريكي التعس؟ يدوي صراع مفاجئ، ويقفز الناس واقفين، ويفقد البعض وعيهم، ظهر الغورو.

على المنصة تحت الأضواء الكاشفة، وقف فتى هندي متوسط القامة، مستدير الوجه، له شعر أسود لامع يغطي نصف أذنيه. وبدا واضحا أن النبي الهندي صبي في سن المراهقة لم يتجاوز عامه السابع عشر.

ثم ساد الصمت وبدأ الغورو يتكلم باللهجة الإنجليزية المميزة لأهل الهند عن الحب وعن النفس التي تحمل كل شيء في الوجود بداخلها والتي على المرء أن يبحث فيها عن أجوبة لكل الأسئلة. والبشر ينصتون، وأنفاسهم معلقة بوجه الصبي المخلّص الذي يعيد بعض مقولات قديمة في التصوف الشرقي. وألكز صديقتي الجالسة بجواري أقول لها ساخرة:

- إن كل هذه الأسئلة حول ووترغيت يجب ألا توجه إلى نيكسون وإدارته بل إلى النفس يا عزيزتي، سلي نفسك تجدي الجواب دائما.

وتضحك صديقتي، والمشهد عاد مثيرا للملل وقد توقفنا عن الإنصات إلى صوت النبي الرتيب. وأفكر كم أن الشاعر إليوت كان عرّافا في توصيف الداء ونموذجيا في الاختيار. حضارة كسيحة، في القصيدة، والآن نصف قرن، تزحف إلى مخزن قديم للموروث الصوفي الشرقي وتستخرج عكازتين لتسير. وذلك المسكين الجالس بجانبي وبجواره عكازتان طويلتان من خشب يستعين على السير بهما، هل جاء هنا آملا في الشفاء على يدي المخلِّص من ساقه المبتورة في الحرب الفيتنامية على الأرجح، أم جاء يبغي عكازة للنفس، صورة أو بعض صورة يعلقها على الجدران العارية لعمره الشقي؟ يا بن الإنسان الواهم، يا بن الإنسان المسكين!

ونترك المشهد. ندير ظهورنا للآلاف الجالسة على العشب ونصعد باتجاه برينس هاوس وكلمات الهندي تصل أسماعنا عبر مكبرات الصوت.

- مشهد كئيب!

- إنهم بحاجة لمخلّص.
- ليس لمخلّص بل لخلاص.
- وذلك لا يخفى على الأجهزة!
- وهناك دائما دمية من نوع ما يمكن إلباسها وطلاؤها وتقديمها في ثوب مخلّص.

في صباح اليوم التالي عرضت عدة أفلام عن الغورو، وعقدت حلقات لدرس ما قال، وفي الساحة المواجهة لمدخل مركز الحرم نصبت طاولات لبيع قمصان قطنية تحمل على الصدر صورته، وأشرطة تسجيل بها أحاديثه، ودبابيس عليها شعاراته.

وقال أحد أصدقائنا وهو يضحك:

- قيل لي إن من يريد تقبيل يد الغورو يدفع ٢٥ دولارا!
- أنا أيضا سمعت ذلك!

ضحكت ولكني لم أكن أمزح، كنت فعلا قد سمعت ذلك! غلبني الشعور في الأسابيع الأخيرة من وجودي في أمهرست بأنني أشبه بنبتة مُنع الماء عنها، وكنت أجف. صرت أتحاشى النظر إلى وجهي في المرآة أصفف شعري، أعدّل من هيئتي وعيناي مثبتتان على شعري أو ملبسي، أخشى

لقاء العينين بالعينين، وأسرع الخطو حتى لا أبصر ذلك الذي يتبعني في صمت عاتب، أنكره ولا أنكره.

ومع ذلك كانت مغادرتي أمهرست هذه المـــرة مختلفـــة بعض الشيء عن سابقتها، كنت أترك ورائي أمـــاكن ألفتهـــا وأصحابا أعطوني في الغربة بيتا أسكن إليه وفيـــه. ذهبـــوا معي إلى المطار لتوديعي، أربكني الفراق، قبلتهم ودخلت إلى قاعات المسافرين يثقلني أنني قد لا أرى صديقيّ الإيـــرانيين بعد ذلك أبدا، لأنهما ينهيان دراستهما ويستعدان للعودة إلـــى بلدهما. تطير بي الطائرة نصف ساعة من مطـــار برادلـــي بهارتفورد إلى نيويورك ثم أجلس في انتظار إقلاع الطـــائرة الجامبو الكبيرة إلى باريس. أصل باريس التي لم أزرها أبدا في صباح اليوم التالي بعد تسع ساعات من طيران متصـــل. وأضن على نفسي بالنوم صباحا في مدينة جديـــدة فأنضـــم لرحلة سياحية تطوف المدينة في ساعات بالأتوبيس. وأسمع كلمة مما تقوله المرشدة وأغفو، ألمح برج إيفيـــل مـــا بـــين اليقظة والنوم، وحين يتوقف الأتوبيس لكي يرى الســـائحون كنيسة نوتردام أذهب إلى مقهى قريب وأتناول كـــوبين مـــن القهوة ثم أدخل إلى مبنى الكنيسة أشاهد معمارها المعجز.

وأنزل في فندق متواضع بحي عمالي. أنام ساعتين ثم أعود إلى الشارع لكي أرى، ولكني أسمع. هل هو الحنين الذي يتبعني صار له صوت كصوت المؤذن ساعة الغروب؟ ولكنني أسمع صوت المؤذن يعلو صافيا في ذلك الحي العمالي الفقير. أتبع الصوت وقبل أن أصله ينتهي الآذان ثم يعقبه غناء لفريد الأطرش. أصل إلى حانة للعمال المغاربة هي مصدر ما سمعت. أقف بباب الحانة، خطوة تقدم بي للجلوس مع من فيها وأخرى تحجم واعية بأن أحدا منهم لن يفهم ما الذي أتى بتلك المرأة العربية مثلهم إلى حانة الرجال. أقف بالباب أستمع للأغنية إلى نهايتها ثم أدور على أعقابي برفقة ظلي الذي أمسكت بيده هذه المرة ورحنا في المدينة الجديدة نسير معا. قضيت يومين في باريس وفي صباح اليوم الثالث غادرتها إلى القاهرة.

أغلق باب حجرتي في برينس هــاوس وأجلــس علــى السرير أمام حقيبتي السفر، الحقيبة التي حملتها من القــاهرة وتلك التي كنت أودعتها بعض أغراضي واحتفظت لي آنًّــا بها في أمهرست. حجرة الغريب موحشة. غدا أضــع علــى السرير ملاءة بيضاء وأحوّل السرير الآخــر إلــى أريكــة أغطيها بالمفرش المصنوع من قطن مدراس. لا زهور فــي يناير أضعها على حافة النافذة. أزيح الستارة الرمادية فأرى أبراج « ساوث ويست » أمامي. خصــتني مــديرة البيــت بحجرة لي وحدي وقد أصبحت من المخضرمين في البيت.

في الصبح أصحو على البلدة التي غادرتها تتــألق فــي عزها الصيفي وقد سكنت في الأبيض وأثقلت فروع أشجارها الثلوج. أخرج معطفي الأزرق وغطــاء رأســي وقفــازي وحذائي المبطن بالفراء من الحقيبة التي أعادتها لي آنًّا. وآنًّا لم تعد تسكن برينس هاوس ولا أصــحابي البورتوريكيــون، وصاحباي الإيرانيان غادرا. ترى مــن يســكن فــي هــذه

الحجرات المجاورة؟ ها هي زميلتي التي كانـــت تشـــاركني الحجرة تسكن في الحجرة الملاصقة، اســـمها علـــى البـــاب وملصق صغير ملون لعروسين بثوب الزفاف. هل تزوجــت أم فقدت عقلها أم أصيبت بالأمرين معا؟ بعد تبادل القـــبلات والأخبار عرفت أنه لم يحدث لها أي من الأمرين. ألا يكتب الإنسان اسمه وعمله بباب بيته تعريفا بهويته؟ هكذا علقــت زميلتي بباب حجرتها اسمها وتعريفا بأكثر الطموحات أصالة في نفسها: حلم الزواج!

على المكتب أضع فصلي الرسالة اللذين انتهيــت مــن كتابتهما أثناء وجودي في القاهرة. ها هما أخيـــرا جـــاهزان للعرض على المشرف. كانت هذه الأوراق المكتوبـــة علـــى الآلة الكاتب والتي لا تتعدى الخمسين هـــي موضـــوع قلــق الرحلة فلم يكن معي ما أخشى عليه سواها. ولمـــا راحــت الطائرة تتعثر في الضباب الكثيف الذي يحيط بنيويورك بـــلا بادرة على إمكانية الهبوط إلى مطار كنيدي أخـــذت أطمـــئن نفسي بأنني أحمل نسختين مما كتبت، إحداهما بحقيبة الســـفر والأخرى في حقيبة يدي! هأنا والأوراق وصلنا فـــي نهايـــة المطاف سالمين. أرتب الأوراق على المكتـــب ثـــم أعلّـــق

بطاقتين مصقولتين اشتريتهما من متحف الإنسان بلندن على لوحة الفلين التي فوق المكتب. البطاقة الأولى تحمل صـــورة بالأبيض والأسود لتمثال صغير من البرونز لـــرأس امـــرأة إفريقية من صنع مثَّال مجهول من اليوروبا. هذا أجمل تمثال صغير وقعت عيناي عليه، وهذه البطاقة الصغيرة تختصـــر الأصل، صحيح ولكنها لا تضيعه. والبطاقة الأخرى مصقولة أيضا ولكنها ملونة لثوب فلاحي فلســطيني مطـــرز. أعيـــد ملابسي إلى الدولاب ثم أبدأ في الاتصال بأصحابي أعلمهـــم بوصولي.

قالت صديقتي الأفرو – أمريكية العجوز التـــي جـــاءت إلى أمهرست في الخريف كأستاذة زائرة:

- تعالي فورا سأكون بانتظارك. إنني أتحـــرق لســـماع أخبار القاهرة.

وضعت السماعة وتحصنت بالمعطف والطاقية والشـــال والقفاز وغادرت برينس إلى وسط البلدة حيث فندق اللـــورد جيفري الذي تنزل فيه صديقتي. ولو أن الوقت صيف لذهبت سيرا على قدمي، ولكن للبـــرد القـــارس أحكامـــه. ركبـــت الأتوبيس إلى وسط البلدة ثم عبـــرت الشـــارع إلـــى كليـــة

أمهرست التي تجاوزتها إلى مبنى صغير هو مبنـــى الفنـــدق الذي كنت أدخله للمرة الأولى. بدا المكان عريقــا ومتميــزا يغلب عليه ما يسمى بـــالطراز « الكولونيـــالي »، فالأثـــاث وجزء من الجدران من الخشب البني اللامع رغــم دكنتـــه، وكأنه مقتطع من بيت أسرة جنوبية بيضاء، ثرية، في القرن الثامن عشر. قلت لنفسي وأنا أبحث عن حجرة صديقتي بعد أن سألت موظف الاستقبال، ولكن هذا فندق في بلدة جامعية ولو نظرت من النافذة الآن، فلن أجد العبيد يعملون في حقول القطن المترامية بل طلبة وطالبات تغلب عليهم الهيئة الهيبية ويعيدون حسابا الماضي على الأرجح.

كانت صديقتي تسكن حجرة في نهاية الممـــر. طرقـــت الباب، فتحت. في حومة اللقاء نسيت الفندق وطرازه وراحت صديقتي تسألني. كانت تحب القاهرة التـــي أتتهـــا كلاجئـــة سياسية عقب الانقلاب على نكروما وأقامت فيها لسنوات في بيت يطل على النيل. وكلما ذهبت لزيارتها قالت: « أجلســـي هنا لتشاهدي ذلك النهر الرائع! » وفي كل مرة أكاد أقول لها إنني لن أمانع في الجلوس في مكان آخر، وإنني آلف المشهد كأنه وجهي في المرآة، أكاد كل مرة أقول ذلـــك ولكنـــي لا

أفعل. وحين أجلس في مواجهة النهر يدهشني حضوره وتحتفي به نفسي كأنها للمرة الأولى تراه.

- تركت القاهرة تغلي، افتتح عمال حلوان العام الجديد بمظاهرات صاخبة في ميدان التحرير وقصر النيل وباب اللوق احتجاجا على تردي الأوضاع الاقتصادية. لقد قبضوا على العديد من العناصر الديمقراطية ولا زالت الحملة مستمرة، حتى أن أحد معارفي التقى بي مصادفة قبل مغادرتي بيومين فقال ساخرا: «ما دمت مسافرة فماذا تنتظرين؟ أن يقبض عليك أولا؟».

قالت السيدة وهي تهز رأسها في أسى:

- عند تولي ذلك الرجل تصورت أنه سيكون امتدادا أصيلا لعبد الناصر. إنه نصف أسود كما تعلمين، ولقد استبشرت بذلك خيرا!

- أي منطق أعوج هذا يا صديقتي العجوز!

- نصف أسود أم نصف أزرق، لا علاقة للألوان بهذه المسائل.

ثم راحت صديقتي تثرثر بهذا الحماس المميز لها وللمسنين عموما عما قامت بتدريسه في فصل الخريف

الدراسي وما سوف تقوم بتدريسه في هذا الفصـــل، وعـــن المودة التي يحيطها بها كل من في القسم. كانت تتحدث بـــلا انقطاع تصل الجملة بالجملة والموضوع بسواه، وأنا أنصـــت لبعض ما تقول وأفكر في تلك البرقية الدالة التـــي أرســـلها زوجها ديبوا عام ١٩٥٦ إلى المؤتمر الأول للكتاب الزنـــوج في باريس. ساعتها كان ديبوا على مشارف التسعين واجـــه الاضطهاد المكارثي في السنوات السابقة حيث كان العديد من الناس يتنصلون من علاقتهم بالماركسية بإعلان انتسابه إلـــى الحزب الشيوعي الأمريكي وقدم للمحاكمة وسحب منه جواز سفره. قال الرجل في برقيته:

«لست معكم اليوم لأن حكومة الولايات المتحدة رفضت أن تعطيني جواز سفر. إن أي زنجي أمريكي يسافر اليـــوم إلى الخارج عليه ألا يناقش الأوضاع العنصرية في الولايات المتحدة أو عليه أن يقول ما تريد وزارة الخارجية أن تقنـــع العالم به. وتعترض الحكومة عليّ أنا بشكل خـــاص لأننـــي اشتراكي» ثم يحذر ديبوا من أن تصبح أفريقيا أداة فـــي يـــد القوى الاستعمارية، يقول: "وأثق أن كتّاب العالم السود سوف يفهمون هذا، ويضطلعون بمهمة قيادة إفريقيا إلـــى طريـــق

النور، وليس إلى الوراء، إلى الاستعمار الجديد، حيث يضع رأسمال بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة يده في يد رأسمال إفريقيا لاستعباد الأيدي العاملة الإفريقية مرة أخرى"

ويا أرملة المناضل الطيبة لا علاقة للألوان بهذه المسائل! وأرملة المناضل تصحبني إلى خارج الفندق وتركب معي الأتوبيس فتية ونشطة كامرأة في العشرين، ثم تجلس معي في أحد مقاهي الجامعة تحكي عن القاهرة وأمهرست وطفولتها ونكروما وبن بللا وشوين لاي، وأنا أنصت للذي تقول، وأفكر في الفندق الذي حمل اسم القائد البريطاني اللورد جيفري أمهرست. كان قائدا عظيما، تقول دائرة المعارف: أبلى بلاء حسنا في حروب بريطانيا في العالم الجديد في مطلع القرن الثامن عشر حتى أن اسمه أطلق على بلدتين، إحداهما في الولايات المتحدة والأخرى في كندا، ترى كيف أبلى اللورد جيفري بلاء حسنا في حروب بريطانيا الاستعمارية وكم من سكان القرى الأصليين أباد وبأي معدل؟ هل حصدهم ببنادق رجاله أم أنه كما تقول الحكايات أهدافهم أغطية مغموسة بالجراثيم فلما تدثروا بها لم

يطلع عليه صباح؟ المهم أن الرجل أبلى بلا ء حسنا ولم يعد في أمهرست هنود... ولا حتى هندي واحد!

وهذا الفندق، فندق اللورد جيفري، يبدو صغيرا جميلا ومتميزا وأنا أقترب منه لتوصيل صديقتي العجوز أودعها عند الباب. ما إن تدخل حتى أدير ظهري. ولكني هنا في أمهرست الكائنة بالولايات المتحدة، وصلتها بالأمس، وأيَّان أولى وجهي فأنا الآن فيها، ولشهور طويلة قادمة. إذن سأعود إلى برينس هاوس لآتي بالهدية التي اشتريتها لمايكل من لندن وأذهب إليه في القسم أفاجئه بوصولي.

طرقت الباب ودخلت. جذبت الشريط عن الورقة الملفوفة وأنا أقول:

- إنها لا تضاهي تلك الصورة الأخرى وهو يركب حصانه بين الأحراش والتي تعلقها في بيتك. لكن هذه أيضا جميلة!

فردت صورة مصقولة على خلفية من الأحمر الناري لوجه تشي غيفارها مرسوما بالحبر الأسود.

- هذه لكي تعلقها هنا في مكتبك بالجامعة!

ترى هل سيكون هذا الحفل كبيرا كذلك الذي أقيم في نهاية العام الماضي تكريما لمايكل بمناسبة استقالته من رئاسة القسم؟ ليلتها اكتظ المكان بالمدعوين وفاضت بهم ممرات البيت بما في ذلك المطبخ، وحين بدأ الرقص بدا وكأن ألواح البيت الأرضية الخشبية العتيقة سوف تهوي تحت أقدام الراقصين وهم يدقون الأرض بانتظام على إيقاع الموسيقى الصاخبة. كانت رسالة الاستقالة التي قدمها مايكل ثلويل إلى مدير الجامعة وأطلعنا عليها تكشف أن هذا الشاب الجامايكي الفارع الطول الذي كُلّف وهو دون الثلاثين بمهمة تأسيس قسم للدراسات الأفرو – أمريكية، وهو الأمر الذي قام به فعلا في السنوات اللاحقة، شاب موهوب ومتميز يبدو وسط تكالب الغابة الأمريكية كفارس عفيف وجهته مغيرة. أقيم حفل التكريم في بيت إحدى المدرّسات بالقسم وامتد حتى الساعات الأولى من الصباح، وحين غادر المدعوون مجاملة وأوغل الليل ساد صمت كأن الباقين على اتفاق، وأخذت امراة جنوبية سوداء تترنم بأغان شعبية من أغاني العبيد في المزارع ثم راح صوتها يعلو في هدأة الليل حادا وقاطعا كأنها تشهد الخلق على وجع الزمان تقاضيه.

لماذا تتسم حفلات الأفرو – أمريكيين بكل هذه الحيوية كأنهم يحملون معهم إلى بيت الحفل سلالا أودعوها ثمار العمر من قدرة على الحياة والفرح والأحزان؟ وهأنا الآن ذاهبة إلى حفل أفرو – أمريكي آخر، حفل زفاف، فالليلة يتزوج مايكل من صديقته كيسي أم الطفلين الجميلين. وأبكر في الذهاب أحمل معي هدية للعروس شالا اشتريته من أحد أزقة ذلك الخان بالقاهرة العتيق الذي تتسرب شوارعه وتتفرع من ساحة المسجد الحسيني ذي المئذنة الرشيقة الواحدة. هذا شال فلاحي مصري شمسي اللون هدية تليق بالخمرية كيسي. وأدخل البيت المكتظ هذه المرة أيضا بعشرات المدعوين. كان مايكل يلبس قميصا إفريقيا فضفاضا تزينه خطوط سوداء تتداخل في أشكال هندسية جميلة. البيض في المدعوين قلة، أم العروس وعدد من الأساتذة من أصدقاء مايكل. لماذا في الغربة نتشبث بالجذور هكذا ونروح في كل محفل نؤكد هويتنا، وهل هو الخوف أم الحنين، أم أنه الزهو بحكايتنا المغايرة؟ حين رأيت صديقي الغاني يلبس قميصا إفريقيا أبيض موشًى بالتطريز العربي حول فتحة العنق لاحظت أنني أيضا قد جئت برداء شبيه موشى بالتطريز

الفضي، وكان كل الأفارقة قد جاءوا على غير العـــادة فـــي حياتهم اليومية بالجامعة بملابس مميزة لمناطقهم أو بلدانهم.

ولما كان مايكل غريبا في الولايات المتحدة وافدا عليها، فلم يحضر حفل زفافه أحد من أهله. ووقف يستقبل الضيوف ويرحب بهم ويقوم بدور العريس وأهله. وكان قد قام بطهـــو طعام العرس بنفسه، كمية هائلة من أكلة جامايكية مكونة من الأرز وفول الصويا واللحم ممزوجة ومتبلة بالفلفل الحار.

قالت لي زوجة أستاذي وهي امـــرأة صـــغيرة الحجـــم تقارب الستين تعقص شعرها الفضي إلى الخلف:

- لقد كان أبي يا رضوى يهوديا من وسط أوروبا، كـــان يهوديا، ولكنه لم يكن أبدا صهيونيا.

هل لاحظت شيئا من نبرة اعتذاريـــة فـــي حـــديثها أم توهمت ذلك؟ فاجأتني كلماتها. كنـــت أعـــرف أن زوجهـــا، المشرف على رسالتي، من أصل يهودي، ولكني كنت أعرف أيضا أنه شيوعي. لم أكن أتوقع أن يثار موضوع الدين، على الأقل ليس هكذا بلا مناسبة. كانت المرأة قد شربت ذلك القدر الذي يجعل الإنسان الطيب أكثر طيبة يرنـــو إلـــى الآخـــر، يقترب منه بغية التواصل، مسقطا حواجز الانكماش والقلـــق

من عدم تقبل الآخرين. بدت لي السيدة في سن أمـــي، أردت أن أقبِّلها وأقول لها كلمات حنونة، ولكني لم أكن شربت بمـــا يكفي لمغالبة حيائي.

كان ضوء الممر الذي وقفت فيه مع زوجة أستاذي هو مصدر الضوء الوحيد لصالة البيت التـــي أطفئـــت أنوارهـــا وتحولت إلى قاعة مكتظة بالراقصين وراح شـــاب أفـــرو – أمريكي يحمل صفارة معدنية صغيرة يطلقهـــا بـــين الحـــين والآخر خالقا فواصل للموسيقى وحالة من الحيوية الاستثنائية والمرح. شاب أسمر له وجه باسم وشارب ولحية ويتحـــدث بصوت عال، ويمد حروف الكلمات بذلك الإيقـــاع المميـــز لحديث السود في الولايات المتحدة. والعريس مايكل يـــروح ويجيء كأم العروس في المثل المصري. وأحد الخبثاء مـــن زملائنا بالقسم يميل عليّ كامرأة من عواجز الفرح ويهمـــس في أذني وعيناه تلمعان:

- أتعرفين ما الذي يدور في الخارج؟

- ماذا؟

- هناك سيدة أتت من واشنطون بسيارتها تقـــف خـــارج البيت تقول إنه ما دام مايكل سيتزوج فهـــي الأولـــى

بذلك. وتهدد برجم البيت بالحجارة. من المؤكـد أنهـا مجنونة!

أجبته وأنا أضحك:

- لو طال بنا المقام في هذا البلد الكريم فما أدراك كيـف ينتهي الحال بنا!

- وقالت صديقتي الأفرو – أمريكية العجوز:

- أتعرفين أن مايكل اختار أن يتزوج في ذكرى مـيلاد ديبوا؟

ومال عليّ أستاذي حين مررت بالقرب منه وصرخ في أذني حتى يصلني ما يقول عبر الموسيقى الصاخبة.

- لقد قرأت فصلي الرسالة.

ثم أبعد فمه عن أذنـي. كنـت أحـدّق فيـه بعينـين مستفسرتين في انتظار المزيد. ومال علي مرة أخرى:

- في الفصل الذي تتناولين فيه نهضة هـارلم تركـزين على كتابات آلين لوك كأن لم يكـن هنـاك غيـره... سنتكلم في ذلك بالتفصيل على أي حال.. سنتكلم فـي وقت آخر!

لو أستطيع فقط أن أنتحي ركنا أغربل هذا القلق الـــذي اجتاحني بكلمات أستاذي. لا مكان للجلوس.. عيناي تبحثـــان عن مكان أقف فيه في هدوء لدقائق. الشاب صاحب الصفارة يطلبني للرقص. قلت له وأنا أتبعه:

- سأخيب ظنك. إنني راقصة رديئة وهذه الرقصة بالذات تكشف رداءتي.!

ضحك الشاب قائلا:

- سأعلِّمك!

لماذا بعض النـــاس خفيفـــو الـــروح يثيـــرون الألفـــة والارتياح؟ هذا الشاب لا أعرفه ولكن هـــو يعلمنـــي هـــذه الرقصة يذكرني بأحب أخوتي الثلاثة إلـــى نفســـي. حـــين رقصت قبل دقائق مع ذلك الرجل الأبيض الذي يدّرس بقسم اللغة الإنجليزية راعني أنه لا ينظر أمامه وهو يرقص. لماذا طلبني للرقص إذن؟ كان مستوعبا بشكل مطلق في ذاته فـــلا يرى الآخر أمامـــه. ذكّرنـــي الرجـــل بشـــخوص «الأرض الخراب» الذين يسيرون في دائرة وقد ثبت كلٌّ عينيه علـــى قدميه "لقد سمعت دورة المفتاح في الباب مرة، مرة واحـــدة" تتحول العيون وتنسحب، تنغلق بوابات الروح وتتأكد عزلـــة

السجناء برغم الدنيا الواسعة. لماذا طلبتني للرقص أيها الرجل الأمريكي؟ ها قد أصبتني بالكآبة! والشاب الأمريكي الأسود يعلمني الرقصة فلا أتحرج من ثقل جسدي المتعثر في الحركة، ويسميني « أختي » على عادة الأفرو – أمريكيين فيما بينهم، ويرقص، ويطلق صفارته، ويضحك، ويثرثر، لقد أتى إلى بيت العرس حاملا هديته سلة من الفرح!

شرعت في كتابة فصل ثالث من الرسالة في الوقت نفسه الذي رحت أعدّل بعض أجزاء من الفصلين اللذين سبق أن كتبتهما في القاهرة. كانت ملحوظة أستاذي ليلة الحفل قد أثارت قلقي، فكان أول ما فعلت صباح اليوم التالي أن أعدت قراءة ما كتبت بعين متربصة ناقدة. ولما التقيت بعد ذلك بأيام بلجنة الإشراف فوجئت بما لم أتوقع من قبول بل وتقريظ، وبدا أن ملحوظة الأستاذ كانت هي مأخذه الأساسي على ما قرأ. خرجت من هذا اللقاء بدفعة حملتني متحمسة إلى المكتبة أجتهد لتحسين ما كتبت ولإنجاز ما تبقى علي من فصول في الرسالة كانت قد بدأت تتخذ شكلا شبه نهائي في ذهني.

رحت أعمل بدأب وإقبال لم يعد مصدرهما رغبة في التحصيل السريع بل اهتمام عاد يتملكني بالموضوع الذي أبحث فيه.

أقضي الصباح غالبا بين أرفف الكتب والدوريات بالمكتبة، أستكمل هذا الجزء أو ذاك مما أشعر به ناقصا في المادة التي أجمعها، وفي المساء والليل أجلس في حجرتي التي أصبحت لي وحدي أجمع أفكاري وأرتبها وأجلس للكتابة.

وفي اليوم متسع، أغادر المكتبة عند الظهر لكي آكل وجبة سريعة في مقهى مركز الحرم الجامعي المواجه لمبنى المكتبة، ثم أعود إلى المكتبة أو حجرتي لمواصلة العمل. في أول كل شهر أحمل النشرة الخاصة بالبرامج الثقافية المشتركة للجامعات الخمس أختار ما أنوي حضوره من عروض ومحاضرات.

ولا شيء يعيق حماس المرأة الصغيرة تتدثر بالمعطف الثقيل وغطاء الرأس (الشال الصوفي) وتنزل إلى كلية هامشير لحضور فيلم من شيلي. الأتوبيس تأخر ولسعة البرد تنفي التفكير في سواها. الثلوج غامرة ودرجة البرودة

تتجاوز العشرين تحت الصفر والمرأة كقنفذ صـــغير تبغـــي إخفاء رأسها وهي ليست بقنفــذ. والأنـــف يتجمـــد، تـــأخر الأتوبيس. والبرد ساعة العودة أشد ولكن ذلك الذي شـــاهدته فذ، غدا سوف أذهب لمشاهدة آخر.

في الوقت متسع، والعشاء في الوحدة كئيب، تلوك المرأة الأكل تفتقد له طعما يميزه. ويا آنًا تعالي غدا لتناول العشـــاء معي.. ويا سوزي وكلارا هل تأتيان الأسبوع القادم للعشـــاء معي؟ وما رأيك يا رشنا في المجيء مع راجنـــدار لتنـــاول العشاء معي؟ نعم الآن لو أردتما. وفي جمع الصحاب يختلف المذاق وتستبدل المرأة الغريبة جلستها وهي تأكل محدقة في فناء الغرفة برفقة ظلها الممتد أمامها بالصخب العفوي. وهذا المكتب حين يمتد عليه غطاء أبيض من الورق يصير مائـــدة أنيقة، ترتب الصحون والأكواب الكرتونية عليها، ثم نجلـــس نأكل ونثرثر وندخن في انتظار أن يغلي الماء لنصنع القهوة خاتمة العشاء وسيدته.

ولكن الصحاب لا يأتون كل يوم. ووجبة المساء كل يوم تتكرر. قطعة من الدجاج أتبلها بسرعة وألفها بورقة فضـــية وأتركها في الفرن نصف ساعة، وأفتح علبـــة مـــن الـــذرة

المسلوق أسخنها في علبتها، وأخرى من البنجـــر المحفـــوظ وأضعها في طبق كرتوني ويكون العشاء سريعا في إعـــداده وأكله، ثم آخذ كوب القهوة وأنزل لإنجاز ذلك الطقس اليومي الآخر الأكثر إثارة، مشاهدة نشرة أنباء الساعة السابعة مساء في قاعة التلفزيون ببرينس. نجلـــس أمـــام الجهـــاز الكبيـــر المرفوع على رف خشبي أمامنا نتابع آخر الأخبار العالميـــة والمحلية تقطعها الإعلانات التجارية عن منتجات مستحدثة أو قديمة. معجون للأسنان، مسحوق للتنظيف، مـــأكولات ذات قيمة غذائية عالية للقطط والكلاب، ملابس داخلية، قـــروض بنكية، ثم يتابع المذيع ما لديه من أخبار، وحين تنتهي النشرة يتفرق العشرات الذين كانوا في القاعة يتابعونها. وينصـــرف كل إلى أشغاله. وأنصرف إلى حجرتي للكتابة بالإنجليزيـــة. أكتب مسودة صفحات أضيفها لما أنجـــزت مـــن الرســـالة، وبالعربية أكتب رسائل تفيض بحنين المـــرأة الوحيـــدة إلـــى القاهرة.

٩

ذابت الثلوج وبدا الربيع وشيكا وإن بقيت علـــى حالهـــا الأشجار عارية الفروع يصفر بينها هواء قـــارس. ورحـــت أواصل دراستي وأنجز وأتواصل رغم الاختلاف مع رفـــاق البيت الواحد. وأنتظر كل يوم ساعة توزيـــع البريـــد أمـــام الصندوق الصغير الذي يحمل لي الفرح أو اللاشيء. وتأتيني في المساء أحيانا مكالمة تلفونية مـــن صـــاحبتي الأفـــرو – أمريكية العجوز تحمل لي خبرا عن البلاد التقطته لتوها من مذياعها الأسود الكبير. يتوغل مارس وينقضي، ويأتي أبريل بالأمطار الغزيرة وآلام الروماتيزم المبرحة. هل هي قســـوة أبريل حين يقلّب بشبقه المطري مواجع الجسد المحـــروم، أم أنه حنين الجسد لطمي تربته السهلية فاض إلى حد الوجـــع؟ أمطار تنسكب على الأرض بلا هوادة أو نهاية، أرقبها، نافذة حجرتي وأواصل الكتابة. وزميلتي الجديـــدة التـــي تســـكن الحجرة المجاورة تدعوني لتناول كـــوب قهـــوة بحجرتهـــا وتعرّفني بنفسها، وتحكي لي بحماس عن عملها كمتطوعـــة

«بفيلق السلام» في تايلاند. وقهوتك أيتها المرأة الأمريكية الشريرة أو البلهاء تقف بحلقي كما حديثك عن مهمتك النبيلة عن نشر الحضارة في ربوع الغابة الآسيوية. وصديقتي الأمريكية الأخرى التي تعرفت عليها في بداية إقامتي في أمهرست، والتي تدرس في كلية التربية صارت تربكني بأسفارها المتكررة. وأقول ونحن نأكل معا: هاتان العينان العسليتان الصافيتان لا تحملان إلا خيرا، أم أنني لا أفقه شيئا في هذا الوجود؟ ولكن كل من في الجامعة يعرف العلاقة بين قسم التربية الدولية فيها ووكالة التنمية الدولية، وصاحبتي تسافر إلى إيران لتسهم في برنامج لمحو الأمية، وأنا أسأل: شريرة هي وأنا لا أفقه في البشر أم هي بلهاء وأداة؟ هذا البلد لا يُقرئنا الأمان، أروح أنكمش وأفرز من الحرص قشرة تحميني من ورثة المؤسسة.

أستمع لمحاضرة قائد هندي من السكان الأصليين يتحدث عن الحركة الهندية الأمريكية التي تأسست عام ١٩٦٨ ووحدت داخلها أكثر من عشرين منظمة. وأنصت لحديثه عن خرق السلطة المتكررة للاتفاقات المبرمة بينها وبين الهنود. «وصل عدد الاتفاقيات ٣٧١ اتفاقية، عقدت

جميعا لتخرق. كل اتفاقية منها كانت تحدد الأراضي الهندية التي لا يجوز لحكومة الولايات المتحدة التدخل في أمورها ثم تخرق، حتى لم يبق لنا سوى المعازل» قال الرجل النحيل وعلى شفتيه شيء من ابتسامة: «لقد أنجبت ثلاثة عشر طفلا.. هذه أيضا قد تكون طريقة للمقاومة!» والرجل أمامي بهيئته المميزة، ضفيرتيه والسير الجلدي حول رأسه وعقد الخرز الملون في رقبته وسترته المشرشرة، يخرج من سياقه السينمائي الزائف إلى التاريخ مكان فأنتمي إليه وأتعلم.

وأشتعل بالتصفيق والحماس لرجال شيليين يقفون على المسرح بعباءاتهم الشعبية يحملون آلات النفخ الآندية. هل يكون قتلاهم أم يمجدون الحياة أم يفعلون الأمرين معا؟ ذكر المذبحة لا زال يدور، أستمع لبعض تفاصيلها من زوجة قتيلها الأول، أللندي في كنيسة صغيرة ملحقة بجامعة ييل في نيوهفين. أتوجه برفقة بعض الصحاب لحضور مؤتمر يعقد ليوم واحد عن نشاطات المخابرات المركزية الأمريكية. وفي المساء، في برد أبريل، نقف بباب الكنيسة ننتظر أن يفتح بابها للاستمتاع إلى محاضرة مسز أللندي. أهتف مع الحاضرين لحكومة الوحدة الشعبية و«للشعب الذي لن يهزم

ما دام متحدا»، أهتف كواحدة من أهـــالي القـــارة الجنوبيـــة الملاحقين في الشوارع بالعصي والقنابل المســـيلة للـــدموع. ذكر المذبحة يدور. أشتري أسطوانتين لأغاني فيكتور هـــارا وتروح آنَّا، صديقتي البورتوريكية، تترجم لي ما يستعصـــي عليّ فهمه من كلمات، وعلى مغلـــف إحـــدى الأســـطوانتين قصيدة هارا عن الخمسة آلاف معتقل في اســـتاذ ســـانتياغو والتي كتبها قبل أن يقطعوا يديه ويقتلوه. ما للمذابح تســـكنني أم أنها تسكن هذا الزمان ولست غير شاهدة؟

وأمر في الطريق بمحل بوســـط البلـــدة يبيـــع الجـــبن والمشروبات فأدخله لأشتري فتستوقفني إلـــى يمـــين البـــاب بطاقة صغيرة بين عشرات البطاقات الأخرى عليهـــا رســـم جمل. وأتوقف أمام هذا الجمـــل الصـــغير كطفـــل كـــأنني بالمصادفة شاهدت في المرآة نفسي. هل هي طرافة الرســـم الذي يبدو كواحدة من الرسوم المتحركة في فيلم للأطفـــال أم هي نظرة العتب الحزين فـــي العينـــين اســـتوقفتني؟ أدفـــع بالقروش القليلة إلى البائعة وأحمل البطاقـــة وأســـير عائـــدة باتجاه الجامعة أستعيد بعض أبيات « الولـــد الفلســـطيني » دحبور الخارج من مذبحة أيلول:

ويا جمل المحامل سر بنا فطريقنا شوك

وليس بغير ضـــرسك يُطحن الشــــوك

وأصل لحجرتي، أخرج البطاقة الصـــغيرة ثـــم أجلـــس لأكتب عليها لمريد بضع كلمات عن كل ذلك.

رغم واقعة العشاء التي كدت أطبق فيها علـــى عنـــق جارتي (المتطوعة في «فيلق السلام» سابقا) حين قالت لي وهي في حجرتي إن عبور المصريين إلى سيناء عـــام ٧٣ غزو واعتداء وما كلفني الشرح الهادئ من جهـــد عصـــبي، رغم هذه الواقعة فإنني كنت في الأيام الأخيرة من أبريل في حالة من التصالح العام مع الوجود ونفسي لم أعشـــها منـــذ وصولي إلى الولايات المتحدة. هل هو التخفف من ملابـــس الشتاء الثقيلة ورؤية النوافذ المشرعة علـــى الأخضـــر فـــي الشجر؟ أم أنه شعوري بالإنجاز ولم يتبق على إنهاء الرسالة سوى كتابة الخاتمة والمقدمة؟ أم أنها قصيدة مريد الجديـــدة « سعيد القروي وحلوة النبع » التي أتتنـــي بالبريـــد كفـــرح مباغت أستجيب له في الحال بإرسال برقية تهنئة؟ أم كانـــت تلك الأمور مجتمعة وشيء آخر يأتي رحـــت أتابعـــه عبـــر الصحف ونشرات الأخبار ووجوه النـــاس؟ وكنـــت أنتظـــر

وصول مريد في منتصف مايو وأرغب في مفاجأته بأنني سلمت الرسالة كاملة لكي تطبع على الآلة الكاتبة قبل عرضها على المشرف، وبهدية صغيرة أخرى وهي ترجمتي إلى الإنجليزية لقصيدته الملحمية الطويلة.

هكذا رحت أعمل كورشة صغيرة متعددة الأقسام، أكتب في الرسالة، وأترجم في القصيدة، وأشارك بشكل يومي في أسبوع لحركات التحرر الوطني، نناطح الصهاينة، ونوزع أدبياتنا، ونعلن تضامننا مع ممثلي المنظمات الوطنية والديمقراطية. وأتابع عبر النشرة الإخبارية في التلفزيون آخر أخبار الحرب الفيتنامية. وحين يوغل الليل حتى تكاد يطلع عليه صبح جديد تسكن الورشة الصغيرة وتغلق رضوى عينيها استعدادا للنوم.

في الشارع جلست على المقعد الخشبي في انتظار الأتوبيس أفكر في تلك الفتاة الهندية الحمراء النحيفة التي تعزف على آلة نفخ شعبية والتي شاركت في أسبوع حركات التحرر. لماذا أربكتني كلماتها هكذا أم أن الحكاية عن قرب هي المربكة؟ هل هكذا التاريخ كالشلال جارف؟ وأي أمل في وصل ما انقطع؟ أيتها الفتاة الهندية النحيلة، أخاف حكايتك

ويوجعني صوت مزمارك، وما العمل؟ وأركــب الأتــوبيس الأصفر الذي يحمل اسم الجامعة وبيدي الفيلم السينمائي الذي أريد إعادته إلى نيويورك، أنزل في وسط البلدة وأدخل مكتب البريد، أدفع بالفيلم إلى الموظف وأنتظر أن يخبرني بـــالمبلغ المطلوب، وأنا أفكر كم أن اختيارنا لهذا الفيلم كـــان موفقـــا. فيلم تسجيلي من إخراج مجموعة من الشـــباب الأمـــريكيين اسمه «ثورة حتى النصر» يربطون فيه عبر مجموعة مـــن الصور الوثائقية بين جرائم النازية ضـــد اليهـــود وجـــرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني. فاقـــت الاســـتجابة كـــل توقعاتنا فعرضنا الفيلم ثلاث مرات، وفي كـــل مـــرة كـــان الحاضرون يصاحبون غناء الفـــدائيين فـــي خاتمـــة الفـــيلم بالتصفيق المنتظم وبتكرار كلمة فدائي التي بالنشيد. ليتك يـــا مريد هنا، إذن لتشاهد الفيلم وجاء معي الليلة إلى حفل الفرقة الدومنيكية!

قبل العودة إلى برينس هاوس مررت بأحـــد المقـــاهي وتناولت وجبة سريعة، أي سندوتش هامبرغر وكوبـــا مـــن القهوة، وعدت إلى البيت. غسلت وجهي وجلست إلى المكتب لأنجز شيئا مما عليّ قبل الذهاب إلى الحفل في الثامنة مساء.

كانت فرقة « اسبرسيون هوفن » ستقدم حفلا تلك الليلة الموافقة مساء ٢٩ أبريل بإحدى قاعات « ساوث ويست » إحياء للذكرى العاشرة لغزو القوات الأمريكية لجمهورية الدومينيكان. وكان حفلها يشكل الليلة الختامية لأسبوع التحرر الذي أقامته مختلف المنظمات الوطنية والديمقراطية في الجامعة.

اكتظ المكان بالطلاب الذين شارك معظمهم في نشاطات مهرجان التحرر على مدى الأيام الستة السابقة. لم تكن القاعة كبيرة ولم يكن بها مسرح، ومع ذلك كان كل شيء قد أعد لاستقبال الفرقة. فنُصبت منصة خشبية صغيرة وأمامها مباشرة وضعت صفوف من الكراسي المتلاصقة تركت هوامش في الجانبين تسمح بوقوف من لا مقعد له. وهكذا حين دخلت الفرقة بدا المكان وكأنه حشد كبير من البشر يحيط بأربعة من الشباب العازفين المغنين. افتتح أحدهم الحفل بكلمة سياسية عن المناسبة ثم بدءوا بأغنية لفكتور هارا أعقبوها بأغنية من أغانيهم وراح أحدهم يعلّم الحضور لازمة الأغنية ويطالبهم بالمشاركة في الغناء. واشتعلت المشاعر المشتعلة أصلا بفعل ستة أيام من العمل التحريضي

وراح الكل يغني. وقالت فتاة صغيرة الحجم شاحبة الوجه، تجلس بجانبي:

- تصورت أنني سأحضر حفلا موسيقيا، ولم أكن أعرف أنني جئت لمظاهرة!

وتأففت. فابتسمت وقالت بصوت عال حتى لا يفوتها ما أقول:

- أما أنا فكنت أعرف!

وتابعت الغناء.

هل كان حماسنا تلك الليلة مصدره نجاح الأسبوع الذي نظمناه أم هذه الفرقة وأغنياتها الجميلة، أم أننا كنا قد بدأنا نعي من خلال متابعتنا للأخبار كل يوم وإن كنا لم نستبق الأحداث بأن حقبة من التاريخ تنتهي لصالحنا؟ وهل كان ممكنا أن يعلن النبأ علينا في جو احتفالي أبهى من ذلك؟ لقد أتى بشير ليهبط علينا من قمم الأولمب ولا تحمل هيئته شيئا من الشعر أو الأسطورة، شاب نحيل ينسدل شعره الأشقر الناعم إلى كتفيه ويلبس قميصا عتيقا من قماش صوفي خشن وبنطالا من الجينز الكالح. سار مباشرة إلى حيث تقف

الفرقة، فتوقف العازفون، اقترب من المغني الذي بيده الميكروفون وهمس في أذنه. فأعلن المغني:

« سقطت سايجون في يد الثوار! »

كان مشهد جلاء آخر رجالات اليانكي من سايجون عبر ثقب في سطوح سفارتهم حيث انتظرتهم طائرة هليكوبتر مصدرا لحالة من الهستيريا العامة. سقط العلم الأمريكي وسط أنقاض الحرب الفيتنامية، وكان على المؤسسة أن تنكر تلك الصورة وأن تقدم بدائل لها ترضي الغرور الوطني وتكرس الأوهام عن الذات، هكذا راح الإعلام يتغنى بأمريكا الجميلة، وبحلمها النبيل، وبالأم الإمبريالية العطوف وإن رد لها بعض أولادها عطاءها جحودا. وأخذت محطات التلفزيون تقدم مقابلات مع أسر أمريكية تبنت أطفالا فيتناميين قبل ذلك بسنوات.

ثم نقلت وكالات الأنباء خبر طائرة النقل الأمريكية التي حملت إلى الولايات المتحدة عدة مئات من الأطفال الفيتناميين إنقاذا لهم مما لحق ببلادهم من هول. وجلس الأمريكيون أمام شاشات التلفزيون يتابعون في نشرة أخبار السابعة مساء الرئيس فورد وهو يستقبل الأطفال في المطار ويحمل بين

ذراعيه طفلا رضيعا من بين ركاب الطـــائرة. والمؤكـــد أن رجالا ونساء عديدين ممن يسكنون إلـــى الـــوهم الأمريكـــي المسمى حلما قد مسحوا دموعهم سرا أو على مـــرأى مـــن آخرين أمام هذا المشهد الذي يمس شغاف القلـــوب ويؤكـــد «الإحسان الأمريكي»، والمؤكد أيضا أن العديدين ممن يعون الطبيعة الكابوسية للحلم أو يعيشون خارج سياقه قـــد تـــابعوا المشهد بمزيج من الارتياح والمرارة وهم العـــارفون بـــالبئر وغطائها، وقد يكونون ضـــحكوا ســـاخرين مـــن تمثيليـــات «التسامي الوطني» أو سبوا المؤسسة وممثليهـــا، أو شـــربوا وهم يتذكرون مظاهراتهم المناهضة للحرب نخـــب المدينـــة المحررة، ثم خرجوا بعد ذلك يسعون في الأرض وقد أودعوا مخلاتهم القماشية الكالحة المعلقة على ظهورهم وزر فيتنـــام جنبا إلى جنب مع الآثام الوطنية الأخرى.

أما لنا نحن الوافدين من أبناء وبنات العـــالم المجلـــود بالسوط الإمبريالي فلم يكن خبر التحرير ورفع علم الثـــوار على سايجون مجرد خبر مفرح تمنينـــاه وتناقلتـــه وكـــالات الأنباء يوما فتحققت الأمنية، بل كان الأمر يخصنا ويدخل في صلب حكايتنا وتاريخنا ومستقبلنا، يؤكد لنـــا أن مـــا نـــراه

ونعتقده ونقوله ونتوقعه ونعد له، في نهاية المطاف ومهما بدا غير ذلك، هو الصحيح الذي لا يصح ســـواه. كـــان العلـــم الإمبريالي قد سقط وكنا قد شاهدنا كيف!

أمسكنا بمطرقتين وأخذنا أنا وزميلة لي نتعاون في فك قوائم السريرين. حملنا الإطارين المعدنيين ووضعناهما متلاصقين تحت الواجهة الزجاجية العريضة للحجرة، أعدنا إليهما الحاشيتين وفرشناهما بملاءة بيضاء كبيرة كأنهما سرير واحد، ثم وضعنا أخيرا الغطاء الأزرق المنقوش بورود صغيرة بيضاء والذي كنت اشتريته في اليوم السابق. ولما انتهينا من ذلك أصبح في الحجرة بدلا من السريرين المفردين ذوي الأعمدة واللذين كنت أستخدم أحدهما للنوم والآخر كأريكة للجلوس سرير مزدوج لا يقع عن الأرض سوى بضع سنتيمترات. وكنت استعد لاستقبال مريد.

انتهيت من كتابة الرسالة قبل ذلك بيومين، وسلمت المخطوطة كاملة إلى من ستقوم بطباعتها على الآلة الكاتبة قبل عرضها على المشرف، واستطعت بعد بحث أن أجد مسكنا مناسبا في الأجر والموقع واتفقت مع صاحبته التي تدرس في الجامعة على موعد إخلائها له. ثم حدثت مسز

روبنسون مديرة برينس عن مجيء مريــد، وأخبرتهــا أنـــه سوف يقيم معي في حجرتي لأربعة أيام إلى أن ننتقــل إلـــى الشقة التي استأجرتها.

وبدا لي كل شيء في ذلك اليوم المشمس من أيام شـــهر مايو كما أردته أن يكون. نظفت الحجرة في الصباح وأعددت طعاما، ثم تحممت وبدأت ألبس وأتزين استعدادا للذهاب إلى المطار. ارتديت لباسا من قطعتين، جونلة يتداخل في نسيجها الصوفي اللونان الرمادي الفاتح والزيتوني الداكن، وبلــوزة من الصوف الخفيف زيتونية اللون مفتوحة بعــض الشـــيء عند الصدر ولها كمان طويلان. وحول رقبتي عقدت سلسلة من فضة فاستقرت على صدري أعلى الثديين، حلية فضـــية جميلة من مشغولات القبائل الصغرى في الجزائـــر، كحلـــت عيني ثم رحت أصفف شعري الذي طال على غير المألوف حتى كاد يصل كتفي، ثم نظرة أخيرة في المرآة ففاجأني إلى حد الدهشة جمال المرأة أمامي. ما الذي يحدث لهذه المـــرأة الصغيرة حين تستعد للقاء حبيبها، وأي شيء ذلك الذي يطرأ عليها فتتألق هكذا كنجمة أو قصيدة؟ هل هو الفـــرح يليـــق برضوى حين تسكنها رائحة الليلك تسري ساعة الغسق عبر

النوافذ المشرعة؟ أم أنها الأنثى يليق بها الصحو؟ وألبس جوربي وحذائي ثم اتصل تلفونيا بالمطار للتأكد من أن الطائرة ستصل في موعدها.

وكم مرةً يا مريد افترقنا، وكم مرةً سوف نلتقي؟ وتلك الغصة في الحلق ساعة يمضي واحدنا إلى داخل المنطقة الجمركية ليجلس متجاهلا ذلك الثقل المتزايد بأسفل المعدة في انتظار الإعلان عن موعد الطائرة. ولماذا في كل مرة نفترق أو نلتقي فيها تبقى صورتك هكذا حاضرة التفاصيل، مشيتك، لفتة رأسك، قصة شعرك، نظرة عينيك الصغيرتين من وراء زجاج نظارتك ورموشك، حتى شكل حذائك ولون جوربك؟

وعبر الواجهة الزجاجية لقاعة الانتظار بالمطار ألمحك تأتي فتأتيني فرحة ناعمة كرأس عصفور مبلل وأخضر ينقر قشر بيضته ويطل، ثم تخرج إلي ونلتقي، نتعانق وكأننا الولد والبنت اللذان أضاع العشق عقلهما فراحا يركضان كمهرين ولكن لا مكان لركض خيول في هذا المطار الأمريكي الحديث الذي تشبه بناياته علب الثقاب الكرتونية. نسكّن فرحنا الأهوج داخلنا ونجلس متجاورين في السيارة التي تحملنا من المطار معا هذه المرة إلى أمهرست.

وفي حجرتي بالجامعة نتبادل القبلات والأخبار، وتناول العشاء، ثم نجلس على السرير ونشرب قهوتنا وندخن ونمارس ذلك الطقس الجميل بين صديقين حميمين قديمين التقيا، طقس الإفضاء والثرثرة والتواصل بعد غياب.

من القاهرة حمل لي مريد بنا عربيا وسجائر كليوباترا التي أفضلها وبعض تفاصيل ما حدث بمدينة المحلة الكبرى.

قال مريد:

- اعتصم العمال وأضربوا وسيطروا على المدينة تقريبا. وسمعت أنهم أقاموا معرضا بإحدى الساحات علقوا فيه على حبل بعض ما وجدوه من لحوم ودجاج في مواجهة حبل آخر علقوا عليه أقراص الفلافل. ثم اقتحمت قوات الأمن المركزي المدينة، بعد أن كانت قد ضربت حولها حصارا لعدة أيام، واحتلتها.

- حدث إطلاق نار؟

- نعم وسقط من العمال عدد من القتلى.

- كم؟

- لا أدري، لكنهم أكثر من عشرة، هذا ما سمعته.

هل أبطأنا الخطو على غير قصد، ونحن نسير باتجاه مركز البلدة، أم أن خطواتنا من الأصل كانت بطيئة ونحن لا نسعى إلى الوصول إلى مكان محدد في وقت محدد؟ ربما لم يكن بطئا بل كان ثقلا ما في حركة الجسد والساقين «إنهم يقتلوننا لأنهم خائفون» رحت أكرر لنفسي ثم أنقل ما أقول لمريد.

- إنهم مذعورون – قال مريد – حتى أن موت أم كلثوم كان يشكل بالنسبة لهم عبئا حقيقيا لا يعرفون كيف يواجهونه. فهم يخشون خروج الناس في حشد إلى الشارع حتى لو كان ذلك في وداع ميت!

هل تصدقين أنهم ظلوا لعدة أيام ينشرون في صحافتهم أخبارا متضاربة عن صحة أم كلثوم؟ فهي يوما قد «مات إكلينيكيا »، ثم هي في اليوم التالي «لا تزال معنا» وكأنهم يخشون مجرد الانفعال المفاجئ للناس، مجرد أن يشعر الناس بأي شيء حتى لو كان الحزن! وبالمناسبة ماتت أم كلثوم وأذاعوا مرات ومرات أغانيها العاطفية وتجاهلوا تماما كل أغانيها المرتبطة بالمد الوطني في الخمسينيات والستينيات».

كنت قد شاهدت طرفا من الجنازة في نشـــرة الأخبـــار بالتلفزيون. ولم يفاجئني بحر البشر الذي راح يمـــوج حـــول جثمانها بقدر ما فاجأ ذلك كل الطلاب الأمريكيين الذي رأوا المشهد والذين راحوا يسألونني باهتمام عن حكاية هذه المغنية التي يثير موتها كل هذا الحزن في كل هؤلاء الناس. أجبتهم بأن المرأة كانت مشهورة جدا، ومحبوبة جدا، وأنها تربعـــت على عرش الغناء في مصر والعالم العربي كلـــه لعشـــرات السنين. وقد تكون إجابتي بدت مقنعة لزملائي الأمريكيين أو لم تبد كذلك، ولكني حين انتهت نشرة الأخبار وصعدت إلـــى حجرتي كنت أعرف أن ما قلته لا يفسر ذلك التماس النـــادر بين تلك المرأة وجماهير الناس. هل هو حضورها الإنســـاني وذكاؤها الشديد وموهبتها في الغناء التي فتحت لها الطريـــق من «الآنسة أم كلثوم إبراهيم» منشدة السيرة النبوية في قرية صغيرة من قرى الدلتا إلى سيدة الغناء العربي التي تضـــبط مؤشرات أجهزة الراديو في وقت واحد مـــن الخلـــيج إلـــى المحيط لتنقل حفلتها ليلة الخميس من مطلع كل شـــهر؟ هـــل هي موهبة المرأة أم أن المرأة بموهبتها تمثلت حاجة عامـــة وجسدتها وتوحدت بإيقاع لحظة في التاريخ، فصارت ملمحا

من ملامحها؟ وهل يمكن فصل المرأة عن المد الناصري وفرحة العرب وخيلائهم باكتشافهم أنهم أمة واحدة؟ وهل هناك أبلغ من أغنيات تلك المرأة في تجسيد ذلك الازدواج المميز للبرجوازية العربية في تطلعها للاستقلال وهي على رأس حركة التحرر الوطني واستكانتها لدرجة النكوص إلى الماضي وأنماطه؟ وهل عاطفية المصريين أمر عادي أم أنها سمة مميزة لهذا الشعب؟ هل أننا نحب أثر ونحزن أكثر أم أننا فقط نفسح عما لا يفصح عنه الآخرون؟

ولم أكن أحب أم كلثوم بشكل خاص أو أهتم بمتابعة حفلاتها بل ويستفزني غناؤها العاطفي وما يكرسه من علاقة عثمانية بين الرجل والمرأة. وكانت عبارات « العزول » و « الجوى » و « الشجن » و « التقلب على جمر النار » و « يا ظالمني » وغيرهما مما يكتظ به قاموس أغانيها خارج كل سياق مقبول للعلاقة بين الجنسين في نظري. ولكن والحق يقال إنني كنت أستجيب للمرأة وهي تقف هكذا كمؤسسة وطنية يعلو صوتها الفذ بقصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » أو « والله زمان يا سلاحي » ويهتز جزعها

ذلك الاهتزاز المباغت لامرأة مسكونة بما تغني، أستجيب كأنني نبتة عطشى وكأن صوتها ماء.

- ويا مريد لم يذيعوا حتى « مصر التي في خاطري وفي دمي »!

- ولا حتى « مصر التي في خاطري وفي دمي »!

- إذن قرروا إنكار وجهها الوطني الأصلي وتكريس وجهها الآخر. إنهم منسقون تماما مع أنفسهم، أقصد في اختيارهم للانحطاط!

ثم رحنا في الأيام التالية نرافق شوارع البلدة وأشجار التلال، نتبعها إلى حيث تأخذنا، نركض في مساحات العشب الممتدة، نتسكع عند المنحنى، نجرجر الخطو في الطريق الجبلية الصاعدة، يباغتنا الليلك الجبلي فنجلس في ظله، نثرثر بلا انقطاع، نركب أتوبيسات الجامعة الصفراء والأتوبيسات العامة للبلدة إلى حيث تحملنا، ننزل في القرى المحيطة والكليات المجاورة، ندخل مقاهيها الجديدة علينا، نحتسي القهوة فيها ونأكل وجباتها السريعة ثم نواصل فرحنا في الشوارع وفي آلة التصوير الصغيرة بحجم الكف، ونوقف عابرا «هل تسمح بتصويرنا معا؟» والرجل يفعل تأدبا وليس

عن طيب خاطر، وكطفلين خبيثين نتطلع باتجاه آلة التصوير في يده نضحك على نظرته الباردة المستخفة فيظن أننا نضحك للصورة.

ونجمع حاجياتنا، نودع برينس هاوس ومن فيه، وننقل إلى مسكننا الجديد بمركز البلدة. شقة صغيرة من حجرتين بالدور الأخير في بيت حجري من ثلاثة طوابق. وكعصفورين أقاما عشهما بأعلى برج كنيسة ذات سقف خشبي مدبب أقمنا مريد وأنا تحت السقف الخشبي المدبب للبيت والذي ينخفض مائلا من الطرفين حيث المطبخ والحمام فلا يستطيع الإنسان أن يقف منتصبا بل عليه أن يحني رأسه تحاشيا للاصطدام. ويسخر مريد مني: « بالله عليك كم مرة ارتطم رأسك بالسقف اليوم؟ » وأتوزع بين رغبتي في الضحك وألم رأسي من أثر الخبطة. ومن النافذة العريضة الملاصقة للسرير نطل على مساحة من العشب تحيط بكنيسة صغيرة وأنيقة لناقوسها الواحد دقة صافية تأتينا في النوم أحيانا كأنها جزء من حلم مبهم. ثم ينكسر إطار نظارة مريد الطبية فنسارع إلى أقرب محل للنظارات بالبلدة «آسفة» تقول المرأة السمينة وهي تعيد لنا النظارة: «ليس

لدي إطار مناسب!» فنذهب إلى محل آخر، ونهـدأ بعـض الشيء حين يخبرنا الشاب الأشقر المتـأنق الواقـف خلـف العارضة الخشبية عن إمكانية تبديل الإطار المكسور بـآخر، ونجلس ننتظر على الكراسي الجلديـة الـوثيرة المجـاورة لحاملات الإطارات الدوارة حتى يأتينا صوت الشاب متعثرا:

- آسف جدا لقد شرخت إحدى الزجاجتين!

ويمد يده بالنظـارة ذات الإطـار الجديـد والزجـاج المصدوع.

- أطلب بالتلفون الآن زجاجـا بـدل الـذي كسـرته، سيرسلونه لي بالبريد، يمكنك استلامه بعد أربعة أيام!

ندفع ثمن الإطار الجديد ونخرج بالنظارة المكسورة إلى الشارع، مريد مغتاظ ومنزعج وأنا أتبعه في صمت. ونلتقي إحدى زميلاتي ببرينس، تعلق على مريد ضاحكة: «طريقـة ممتازة لمشاهدة أمريكا للمرة الأولى، أقصـد عبـر زجـاج نظارة مكسورة!» ثم نعود بعد أربعة أيام للشاب الذي يستقبلنا بابتسامة ظافرة، يناوله مريـد النظـارة، يسـتبدل الزجـاج المكسور بالجديد الذي أتاه بالبريد، نتبادل الابتسامات وكلمات الشكر ونغادر. «نستطيع الآن أن نذهب إلى نيويورك كمـا

كنا ننوي، انتهت المشكلة والجو دافئ ولطيف» أقول ملتفتة لمريد. أتوقف محدقة في نظارته. كانت إحدى زجاجتيها (الجديدة) تحولت إلى لون داكن في ضوء الشمس وبقيت الأخرى على حالها بيضاء!

يخلع مريد نظارته ويحدق فيها ثم ينطلق كالسهم عائدا إلى المحل، وأهرول وراءه.

يقول الشاب في صوت نحاسي هادئ:

- لقد كسرت زجاجا واحدا ولست مسئولا إلا عنه!

- ولكنك لو قلت لي أن هناك أي احتمال لاختلاف الزجاج لطلبت زجاجتين جديدتين!

كيف يتبادر لذهنك أن يلبس إنسان، أي إنسان نظارة كهذه؟

كان مريد يتكلم بحدة وانفعال. أما الشاب فراح يدير قرص التلفون ويقول ببطء مترفع:

- لقد أخطأت في محاولة مساعدتك بتغيير الإطار، كان يجب ألا ألمس هذه النظارة فصناعتها رديئة وزجاجها من نوع لم نعد نستخدمه في الولايات المتحدة! عد بعد أربعة أيام!

وحين استلمنا النظارة أخيرا بزجاجتيها المتشابهتين واستدرنا متجهين إلى باب المحل كان الشاب يتحدث إلى نفسه بصوت خافت، فلما دفع مريد الباب رفع صوته قليلا:

- لو وضعت رجلك في هذا المكان ثانية فسوف أكسرها!

- ما الذي يقوله هذا الأبله؟

سألني مريد وقد خرجنا إلى الشارع، فأجبته ساخرة:

- قال إننا، ونظاراتنا سيئة الصنع، وربما أيضا أشكالنا، لا تليق بمحله الراقي!

- صحيح ما الذي قاله؟

سحبته من ذراعه مبتعدة عن المكان وأنا أقول ضاحكة: «الآن تستطيع مشاهدة أمريكا!».

١١

تحت مظلة واقية من المطر وقفنا في طقس غائم وبارد ننتظر وصول الأتوبيس الذي سوف يحملنا إلـــى نيويـــورك. جاء وركبنا، وبعد أربع ساعات وصـــلنا المدينـــة، ومـــا إن غادرنا الأتوبيس حتى سألنا عن الطريق إلى الفنـــدق الـــذي سوف ننزل فيه، فعرفنا أن بالإمكان الذهاب إليه سيرا. مشينا في شارع عريض غير مزدحم نبحث عن تقـــاطع الشـــارع الرابع والثلاثين بشارع برودواي، بيد مريد حقيبـــة جلديـــة صغيرة بها ملابسنا وبيدي المظلة الواقية من المطـــر وقـــد أغلقتها بسبب شدة الهواء رغم الرذاذ الذي ظل يتساقط على رأسينا. وبدا لي أنها المرة الأولى التي أزور المدينـــة فيهـــا وإن لم يكن ذلك صحيحا.

- هل تذكر تلك القصة القصيرة لأحمد هاشـــم الشـــريف التي تدور عن موظف ريفي صغير يأتي إلى القـــاهرة للمرة الأولى وبيده حقيبة تجسد خشيته بل ذعره مـــن

فقدها كل مخاوفه من الضياع في المدينة الكبيرة؟ ثم وأنا أضحك: احرص على الحقيبة التي في يدك!

فأجاب بجدية مدعاة:

- احذري من فقد المظلة!

انحرفنا يسارا فازدحم الشارع فجأة بالمارة والحوانيت الصغيرة والكبيرة، ثم على بعد خطوات وجدنا فندقا. سألنا، وكان الفندق هو بغيتنا، به طابق كامل تؤجر حجراته بثمن مخفض للطلاب. صعدنا إلى الطابق العشرين حيث مكتب الطلاب السياحي وأبرزت بطاقتي الجامعية « أجرة المبيت عشرون دولارا بدون إفطار » دفعناها وأخذنا المفتاح واتجهنا إلى الغرفة.

قلت وأنا أغلق باب الحجرة وأبتسم:

- ها قد وصلنا إلى الفندق دون أن نفقد المظلة!

على الباب من الداخل علقت لائحة مطبوعة بخط صغير تحمل عددا من التعليمات:

١- لا تترك باب الحجرة مفتوحا وأنت بها، بل اغلقه بالترباس من الداخل.

٢- حين تغادر حجرتك تأكد من أنك أغلقتها وأدرت المفتاح بالباب دورتين.

٣- تأكد حين تعيد مفتاحك إلى الاستقبال أن لا أحد يراقبك.

٤- لا تفتح باب حجرتك لطارق ما لم يخبرك موظف الاستقبال تلفونيا بأن ضيفا في الطريق إليك.

٥- سلّم كل ما تحرص عليه من مال أو مقتنيات ثمينة إلى قسم الأمانات بالفندق والإدارة غير مسئولة عما يترك منها في الحجرة.

٦- إذا هددك في الطريق شخص وطلب منك مالك فأعطه له بلا تردد حفاظا على حياتك.

تبادلنا النظرات وضحكنا ، ولكنني، حين دخل الحمام، أغلقت ترباس الباب وعندما غادرنا الحجرة بعد أن اغتسلنا وبدلنا ملابسنا أقفل هو الباب ثم أدار المفتاح فيه مرتين!

ركبنا المصعد إلى الدور الأرضي وسلمنا إلى الأمانات جوازي السفر وأعدنا المفتاح إلى الاستقبال ثم خرجنا لنأكـــل ونتسكع في شوارع المدينة.

تناولنا وجبة سريعة من الهامبورغر والبطاطس المقلية وشربنا كوبين من القهوة ثم خرجنا إلى الشارع مرة أخرى، ننوي زيارة مبنى الامباير ستيت الذي لم يكن يبعد عن الفندق سوى بضع دقائق سيرا. قلت لمريد ونحن ننتظـــر الإشـــارة الخضراء لكي نعبر الطريق:

- لم أر هذا المبنى قبل ذلك، رغم إننـــي زرت المدينـــة ثلاث مرات. في زيارتي الأولـــى زرت كمـــا يليـــق بمجنونة مثلي ثلاثة متاحف في يـــوم واحـــد. وفـــي زيارتي الثانية توارت المدينة خلف صاحبتي اللبنانيـــة وحكاياتها الطويلة الموجعة عن صديقها الذي خلفته في بيروت وتقلباته العاطفية التي لا تنتهي. أما في المـــرة الثالثة فقد رأيت شريحة من نخبتها اليسارية القديمـــة. جئت بصحبة صديقتنا الأفـــرو – أمريكيـــة العجـــوز وأقمت معها في بيت أحد أصدقائها وحضرت «حفـــلا عائليا» صغيرا على شرفها. كـــان كـــل الحاضـــرين

باستثنائي أبناء جيل واحد، تجاوز الستين أو على مشارفها، جمعتهم على ما فهمت فترة الاضطهاد المكارثي في مطلع الخمسينيات. قلت ونحن ندخل إلى مبنى الامباير ستيت ونقف في الصف الطويل لشراء تذاكر للصعود إليها: « ولكن تلك حكاية طويلة، لا بد أن أحكي لك عنها بالتفصيل في وقت آخر! ».

ركبنا المصعد إلى حيث شرفة المشاهدة. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة عصرا، ولكن الجو كان غائما، فبدا كأنه الغسق. خرجنا إلى الشرفة فلفح وجوهنا عواء عاصف وبارد راح يصفر عبر شعرنا وملابسنا. تحتنا على امتداد البصر كانت نيويورك تقبع في الضباب يخفي تفاصيلها ولا يخفي فتبدو بناياتها الشاهقة الكثيرة كالفطر متناثرة في مجموعات هنا وهناك.

- لا أرى تمثال الحرية!

قال مريد أجلت البصر في المكان ثم أخرجت من حقيبتي خريطة المدينة أبحث عن مكان التمثال، ثم رفعت عيني وعدت أجول بهما في المدينة الممتدة أسفلنا، قلت مشيرة بيدي إلى اللاشيء:

- أعتقد أنه في هذا الاتجاه.

- إنه غارق في الضباب على أي حال!

عدت أحدق في الخريطة بيدي ثم أشرت إلى مجموعة من البنايات المرتفعة:

- في هذا الاتجاه، وول ستريت، شارع التجارة والمال.

كانت سرعة الرياح تصطدم بنا كأنها سوف تفقدنا التوازن والهواء يصفر لاسعا في أذنينا. قلت لمريد ونحن ندخل إلى الشرفة الداخلية لكي نحتمي بدفء مكان مغلق:

- لا تبدو ناطحات السحاب من هذا العلو الشاهق مخيفة كما يبدو لمن يقف بالقرب من مداخلها. في بوسطون مجموعة من ناطحات السحاب الحديثة جدا بدت لي وأنا أنظر إليها عبر الشارع، أنها هياكل شاهقة منتصبة لا سمك لها، وإنها قد تسقط في أي وقت، وكلما رفعت عيني إلى واجهاتها التي تخلو من الشرفات ولا يُظهر زجاج نوافذها الأسود أحدا من ساكنيها، شعرت بالخوف، الخوف الشديد.

- ربما كان علينا أن نأتي مرة أخرى في يوم مشمس لعلنا نشاهد شيئا غير الأسمنت والضباب، هل تشربين كوبا من القهوة؟

دفعنا الباب الزجاجي المفضي إلى الشارع المزدحم بالمارة، تشابكت أيدينا ونحن نردد أبياتا من قصيدة «الأرض الخراب» للشاعر الأمريكي إليوت يقول مريد بيتا فأعقبه بآخر ثم أكرر من القصيدة بيتا وقد عدلت فيه كلمة أو كلمتين:

-Unreal city under the brown fog of a winter dawn.

- I had not thought death had endone so many.

-Unreal city under the grey fog of a summer dusk.

!- Vienna, paris, London, unreal

أحاطني مريد بذراعيه وسرنا في الشوارع نأتنس بالزحام وضوء المصابيح ونحدق في المدينة الكبيرة التي نعرفها ولا نعرفها.

ارتدينا ملابسنا ونزلنا لنبحث عن مقهى نتناول إفطارنا فيه. خرجنا إلى الطريق الذي بدا بالمقارنة بالليلة السابقة

خاليا من المارة. نظرت إلى ساعتي، لم تكن تجاوزت الثامنة صباحا، وكنا يوم سبت. كان الطقس غائما وإن لم يكن في برودة الأمس. دخلنا إلى مقهى صغير بشارع جانبي وجلسنا على كرسيين مرتفعين بجوار العارضة الخشبية التي يُقدَّم الأكل عليها والتي يقف وراءها النادل. طلب مريد بيضا مقليا وقهوة وطلبت مع القهوة شريحة من الخبز بالجبن وقطعة من الحلوى. لم يكن بالمقهى شريحة الخبز بالجبن وقطة من الحلوى. لم يكن بالمقهى من رواد إلا نحن ورجل عجوز جالس على مائدة جانبية يتناول إفطاره في صمت، ثم دخلت سيدة متقدمة في السن تلبس معطفا وجلست على إحدى الموائد الجانبية قريبا من مائدة الرجل، أخذت تنقل نظراتها بيننا وبين النادل تنتظر أن يأتيها بالإفطار.

- المسنون يشعرون أكثر بالبرودة. وهذه السيدة المسكينة تلبس معطفا في شهر يونيه.

- غريب خروجها لتناول الإفطار في مقهى في الصباح المبكر هكذا!

كانت المرأة قد بدأت تتبادل الحديث مع الرجل عبر المائدة الخالية بينهما.

- ربما تعيش وحدها وتشعر بالوحشة.

وضع النادل الإفطار الذي طلبناه أمامنا فأخذنا نأكل في صمت. وأنا أفكر في الرجل العجوز بقصة همنغواي الـذي يذهب كل ليلة إلى المقهى ويبقى جالسا به حتى يخلـو مـن الرواد وتحين ساعة إغلاقه. وأستعيد حـوار النـادلين عـن شخص أقـدم علـى الانتحـار «لمـاذا؟»، «لا شـيء!»، «لا شيء؟»، «لا شيء!» تتردد العبارة في القصة كنـاقوس حزين يؤكد هبوط ذلك اللاشيء الموحش على دنيا الرجـل فيتشبث بالمقهى «المكان النظيف جيد الإضاءة» يـدرأ فيـه شيئا من الخوف في نفسه. رفعت عيني عن كـوب القهـوة الذي أحتسبه. كان الرجل قد غادر تاركا وراءه على المائـدة مخلفات إفطاره، والمرأة جالسة في ترهل مثقل تحـدق فـي الفراغ وقد كشف معطفها المفتوح عن ما تحته من ملابـس، لم تكن قد خلعت قميص نومها بل أحاطته من عند وسـطها بحزام رفيع لرفعه قليلا كي لا يبين ذيله من تحت المعطف.

- هل تذهب إلى تمثال الحرية... أم نذهب إلى هارلم؟

دفعنا ثمن إفطارنا وغادرنا المقهى إلى الشـارع ولـم نقرر بعد إلى أين سنذهب. عدنا أدراجنا في اتجاه الفندق ثـم

تجاوزناه إلى تقاطع الشـــارع الرابـــع والثلاثـــين بالشـــارع الخامس وأنا ألقي على مريد قصيدة لانغستون هيـــوز عـــن هارلم:

ما الذي يحدث لحلم أجّلوه؟
هل يجف
كزبيبة في الشمس،
أم تخرج به القروح فيتقيح؟
هل تفوح رائحته كاللحم العطن؟
أم يفرز قشرة
كمشروب سكري مركّز؟
ربما يتدلى
كحمل ثقيل
أم أنه ينفجر؟

وننحرف إلى الشارع الخامس نسير باتجـــاه الحوانيـــت التجارية الكبيرة الأنيقة التي تعطي الشارع والمدينة شيئا من هويتهما. وهارلم القصيدة مكثفة ومجردة تستحضـــر هـــارلم الوقائع والتفاصيل التي عايشتها عبر دراستي. قطار ينبعـــث دخانه ويسرع إلى المدينة التي تطل علـــى الأطلســـي فـــي

الشمال بامرأة ترفع يدها عاليا بشعلة للحرية. هـم يريـدون الحرية، نازحون من مدن الجنوب إليها، سود وفقراء يدخلون المدينة وبأيديهم صغارهم وحقائـب السـفر (مقفلـة علـى ملابسهم وبعض تذكارات الماضي وحلم). ولكـن يـورك الجديدة لا تحب اختلاط الألـوان – أليسـت ابنـة أوروبـا وصورتها في المرآة – نيويورك تختـار بياضـها العرقـي وتترك للسود هارلم، فتصبح عاصـمة لفقـرائهم ومهنيـيهم وفنانيهم وجنودهم العائدين من الحرب العالمية الأولى بأفكار عن تحرر الشعوب. والعشرينيات شاهدة، تكـتظ الشـوارع بالأهالي السود المهللين لمسيرات ماركوس غارفي يتقـدمها بلباسه المميز وقبعته المزركشة مناديا بالعودة إلـى إفريقيـا وبالقومية السوداء. وصحف ومجلات تتحدث عـن الحقـوق والتحرر الوطني، وقصائد تتغنى بالأسود الجميـل. حانـات كثيرة وعزف بيانو ناعم ينساب وغضبة ساكسافون وصوت واعظ متمرد. وخطباء يقفون على نواصي الشوارع يحدثون الناس عن الاشتراكية ومبادئ الصراع والثورة.

وتمر السنوات على هارلم فتطبعهـا بهويـة الفقـراء وعنصرهم العرقي. يصبح الغيتو الكبير عاصمة للمقهـورين

المعبئين بكراهية غريزية للشرطة والأثرياء وبحاجة إلى التحطيم، تحطيم أنفسهم، وبعضهم البعض مرارة وغلا، أو تحطيم قاهريهم في انفجارات جماعية في وجه السلطة البيضاء ممثلة في ممتلكاتها وقوة قمعها البوليسية. «رضوى، هل ترين ذلك الموكب هناك، تعالي تعالي!» جرني مريد من يدي لكي نعبر الشارع في اتجاه موكب من الشباب حليقي الرءوس يلبسون سراويل بيضاء ويغطون جزءا من صدرهم كالمحرمين من حجاج المسلمين بقطعة قماشية رقيقة لونها برتقالي فاتح، بعضهم كان يحمل طبولا يدق عليها.

- هؤلاء هم أتباع كريشنا؟
- ويدعون للحب والسلام.
- يا سلام!
- ألا ترى كيف يبدو هؤلاء الشباب روحانيين ومتجردين عن هذه الدنيا وصراعاتها!
- كنا نتحدث عن هارلم، أراهنك أنهم لا يستطيعون الاقتراب منها. إن لم يصبهم شيء، فعلى الأقل سينوبهم السخرية!

قلت وأنا أضحك:

- يا أيها الشاعر عليك بالتسامي، أليست لديك أجنحة؟!

لم نكن بعيدين عن متحف المتروبوليتان فعرضت علي مريد، رغم علمي بعدم حماسه لزيارة المتاحف، أن نـــذهب. قلت له مشجعة إن فيه مجموعة مصرية كبيـــرة ومجموعـــة يونانية ومجموعات أخرى كبيرة نادرة.

- لقد زرته قبل ذلك، ما رأيك هل تذهب؟

قال مريد:

- ما رأيك أنت أن نقضي النهار في الشوارع؟ بالله عليك أيها أفضل: أن ترى مئات الصور والتماثيـــل خـــارج سياقها في ضوء النيون الباهت، وتنقلي من قاعة إلـــى قاعة ملاحقة برائحة الطلاء العالقة بالأرضية الخشبية اللامعة، أم نتعرف على المدينة من خلال التسكع فـــي شوارعها؟

قضينا باقي النهار في الشارع الخـــامس نحـــدق فـــي واجهات المحلات ووجوه الناس، نعلق على أســـعار الســـلع وهيئة المارة. نسخر ونضحك، ونتفق ونختلف، نثرثـــر ثـــم نصمت، ثم نعود لثرثرة، ندخل مكتبة للســـؤال عـــن كتـــاب

ونخرج وقد اشترينا سواه، نقطع الشوارع في اتجاه ميــدان واشنطون وجرينتش فيلاج حتى كلت أقدامنا من طــول مـــا مشينا وقرصنا الجوع.

- مريد، ألم تمل الهامبورغور؟
- حين أجوع يصبح المهم أن آكل!
- حين تطول بك الإقامة في الولايــات المتحــدة، فمــن المؤكد أنك سوف تكره الهامبورغر. فـــي الأســبوع الأول من وصولي لم تكن مطاعم الجامعة قد فتحــت فكنت أتناول الغــداء والعشــاء يوميــا فـــي مقهـــى «البلووول» في الجامعة، هامبورغر سادة، هامبورغر بالجبن، هامبروغر بالبيض، ملك البورغور!
- حتى أصبح الهامبورغر يسيري في دمك!
- وكدت أخشى التسمم!
- هذا محل بيتزا، أنت تحبينها.

دفعنا الباب ودخلنا، فلفحتنا حرارة المكان. كان المحــل صغيرا به عارضة خشبية بحذاء الحائط وعدة كراس خشبية عالية بلا مسند لجلوس الرواد. وفـــي مواجهتهـــا عارضــــة أخرى يقف خلفها رجل ربع، قمحي اللـــون أســـود العينـــين

والشعر، له شارب كثيف، التصق قميصه بصـــدره المبلـــل بالعرق. كان الشاب يعمل في سرعة وآلية، يـــرق العجـــين ويغطيه باللحم المفروم أو الفطر وشـــرائح مـــن الطمـــاطم والجبن ثم يدخله إلى الفرن الذي وراءه. همست لمريد ونحن بانتظار دورنا:

- هذا الشاب عربي أو إيراني.

- كيف عرفت؟

- شكله!

- قد يكون إيطاليا.

- لا، بصدره سلسلة ذهبية بها آية الكرسي.

- ربما كان تركيا!

سألت الشاب بعد أن طلبت منه قطعتين من البيتزا:

- هل أنت عربي؟

رفع عينيه إليّ ومشروع ابتسامة على شفتيه:

- نعم أنا فلسطيني، من القدس، وأنت؟

- أنا مصرية، وهذا زوجي فلسطيني.

- أهلين، أهلين!

قالها الشاب وقد توقفت يداه عن العمل وتحول المشروع إلى ابتسامة عريضة أكسبت وجهه المستدير المتورد بفعل وهج الفرن حماسا طفليا وطيبة.

- هل تدرسان هنا؟ إنني أعمل هنا منذ عدة شهور. كنت هنا في تشرين الماضي حين أتى أبو عمار وتحدث في الأمم المتحدة باسم فلسطين، كان ذلك عيدا، ولقد بكيت!

وبدأ الشاب يصنع البيتزا التي طلبناها منه. لم يكن بالمحل من عاملين سواه، وشخص آخر يجلس أمام حاسبة النقود، وكان عدد من الرواد يقفون في الصف وراءنا في انتظار دورهم. ولم يكن بإمكان الشاب أن يتحدث معنا أكثر فراح يعبر عن احتفائه من خلال البيتزا التي يصنعها لنا، ورحت أتابعه وهو يقتطع كرتين كبيرتين من العجين ويفردهما واحدة بعد الأخرى ويغطيهما بكمية تفوق المعتاد من اللحم المفروم والطماطم والجبن. نظرت إلى مريد، كانت عيناه على يدي الشاب وهما تصنعان الفطائر، وبقي صامتا ونحن نأكل البيتزا، وحين انتهينا قال لنا الشاب بحماس:

- عودا ثانية!

شكرته ورفع له مريد يده محييا وقال:

- دير بالك ع حالك يا خوي، دير بالك ع حالك!

حين وصلنا إلى ميدان واشنطون، كنا قد قطعنا مسافة أخرى كبيرة سيرا، فجلسنا على أحد المقاعد بجوار مجموعة من الشباب هيبي الهيئة يعزف أحدهم على الغيتار ويرافقه آخر على صفارة. سكنا إلى جلستنا الهادئة، ندخن ونستمع إلى عزف الشباب، ونتابع بعيوننا أسراب الحمام التي تتجمع في بقعة من العشب ثم تطير فجأة كلما تجمعت تاركة وراءها واحدة تسير ببطء وتحرك رقبتها تلك الحركة المميزة لطير الحمام.

- ومن يأتي لنا بكوب قهوة؟

غادرنا أماكننا وسرنا باتجاه الشارع. كان بالحديقة – الميدان مساحات ممتدة من العشب الأخضر يحط عليه الحمام ثم يطير فتتبعه عيون الرجال والنساء المسنين المتناثرين على الأرائك الخشبية. وعلى أرائك وحدهم جلس بعض السكارى، مالوا برءوسهم المتغضنة القديمة على صدورهم مخلدين لسكون كأنه النوم. واحد منهم يحدق في اللاشيء أمامه وقد استغرق في حديث مع الهواء ونفسه ومن يقترب

من المارة منه، وبجواره كيس من الورق البني خبأ فيه علبة البيرة أو زجاجة الخمر التي راح يقطع حديثه للشرب منها. وهنا وهناك تجمع شباب هيبيو الهيئة يعزفون أو يدخنون أو يتبادلون النكات. لمحنا جمهرة من النـــاس ببيـــنهم أطفـــال كثيرون، اقتربنا، كان الأطفال يضـــحكون والكبـــار أيضـــا. زججنا بأنفسنا بينهم حتى نتمكن من المشاهدة. كان الناس قد أفسحوا المكان لفتى نحيل، أشقر، حليق الشعر، يلبس قميصا وبنطالا وحذاء أسود، يقوم بعرض تمثيلي صامت. يحـــاول فتح نافذة زجاجية يتقوس ظهره قليلا، يهبط كتفاه، تحتـــبس أنفاسه، ويمتد ذراعاه، وتدفع يداه المفتوحتـــان كمـــروحتين بالزجاج الوهم إلى أعلى. ويزداد تقوس ظهـــره، وتـــتقلص عضلات وجهه وهو يرفع بكل طاقتـــه الزجـــاج اللاشـــيء. يدفع، ثم يقفز للخلف فجأة متحاشيا سقوط الزجاج اللاشـــيء. يدفع، يدفع، ثم يقفز للخلف فجأة متحاشيا سقوط الزجاج على أصابع يديه النحيلتين. يصفق له الناس فينحني لهم بابتســـامة ثم يبدأ في مشهد جديد.

وعلى بعد خطوات من عرض التمثيل الصامت، عنـــد مدخل الحديقة كان شاب أسمر من جزر الهند الغربية علـــى

الأرجح يقف في لباس مزركش زاهي الألوان أمام برميلين كبيرين ويشرح للمارة بعض تفاصيل فنه.

- قالوا هذه البراميل القديمة للقمامة، فقلنا بل لمتعة الناس. انظروا يا أخوتي، هذان البرميلان من الصفيح هما آلة موسيقية بسيطة، هكذا تبدو، ولكن بها إمكانيات عظيمة... اسمعوا هكذا!

وأخذ الشاب يضرب عصيه على أجزاء مختلفة من البرميلين محدثا صوتا مختلفا في كل مرة

- إنني فقط أريكم كيف. ولكني الآن سأسمعكم الموسيقى الحقيقية.

وبدأ الشاب ذو الوجه الأسود المستدير والعينين اللامعتين يضرب بسرعة واقتدار على طبلتيه محدثا أصواتا تتناغم وتتنافر داخل نسق لحني جميل، وراح جسده يميل يمنه ويسرة يجاوب الصوت وكأنه هو نفسه ثالث الطبلتين يشاركهما وحدة عضوية لا تحل، وكأن وجهه الأسود المتصبب عرقا يفيض قوة وعذوبة.

- والقهوة؟

- الأفضل أن نركب الأتوبيس إلى الفندق ونتناول قهوتنا في مكان قريب من هنا.

كانت الشمس قد مالت للغروب والغسق وشـيك، وكنـا نريد أن نأكل شيئا ونتناول القهوة ونعود إلى حجرتنا بالفندق قبل أن يهبط الليل علينا، غريبين في المدينة التي نعرفها ولا نعرفها.

- ما الذي يحدث هذه الليلة؟

تساءلت بصوت مسموع معلقة علـى الصـفير الحـاد المتصل لسيارات الشرطة التي بدا وكأنها خرجت بالمئـات مرة واحدة إلى وسط المدينة تقطعها جيئة وذهابا.

- ربما كان ذلك يحدث كل ليلة، قال مريد، ولم نلحظـه بالأمس لأننا نمنا مبكرا.

لم يكن بالحجرة شرفة نطل منها على الطريق بل طاقة مربعة بأعلى الجدران نرى عبر فتحتهـا بعـض أضـواء ناطحات السحاب. لم يكن بإمكاننا رؤية الكشافات الفوسفورية الزرقاء لسيارات النجدة وهي تواكب في حركتهـا الدائريـة النابضة والصفير المتقطع.

جلسنا أمام التلفزيون، مريد متكئ بظهره على السـرير وأنا على مقعد مقابل، ننظر إلى ما يدور على الشاشـة ولا نتابعه. نبدأ حوارا في موضوع ثم لا نوفيه. وبدا أن انشغالنا بذلك الذي يدور من حولنا أمر لا مهرب منه. باب الحجـرة مغلق بالترباس، والمفتاح تعلوه لافتة من التعليمات الأمنيـة، كنا نعي ذلك ونعي أننا في غرفة بالدور العشرين بفندق فـي قلب منهاتن. ننصت لأصوات سيارات النجدة كأننا مسجونان راحا يصيخان السمع، أداتهما الوحيدة لعقـد صـلة بالعـالم الخارجي حولهما.

- خمِّن ما الذي حدث الآن؟
- عثروا على شخص قتيل!
- أو معركة بالزجاجات وقعت في حانة!
- أو سيارة سرقت!
- هذا ما يحدث في كل مكان!
- خمن مرة أخرى؟
- سيدة ثرية اكتشفت سرقة عقدها الماسي!
- سرقت متحف!
- أو بنك!

- أو بيت!

- هذا يحدث في كل مكان!

استهوتنا اللعبة.

- شباب سود اقتحموا متجرا وحطموا كل ما فيه!

- امراة بورتوريكية فقيرة قتلت نفسها!

- أبلغ الجيران عن رائحة كريهة تنبعث من مسكن جارهم العجوز الذي لم يره أحد منذ أيام!

- شرطي أطلق الرصاص على شاب أسود!

- فتاة اعتدي عليها جنسيا ثم ضربت حتى الموت!

- عشرة شباب سكروا ثم قاموا بانتحار جماعي!

- هذه لعبة كئيبة، سأقوم لأتحمم!

- هل نذهب إلى تمثال الحرية؟

- سنذهب إلى « الغرنيكا ».

دفعنا الباب الزجاجي للفندق المفضي إلى الطريق وسرنا باتجاه تقطاع الشارع الرابع والثلاثين بالشارع الخامس، ثم انحرفنا يسارا قاصدين متحف الفن الحديث. «بدأت تمطر!» تطلعت إلى أعلى، السماء ملبدة بغيوم رصاصية. فتح مريد المظلة، وأمسكها بيده اليسرى، وسرت

أنا بجواره متعلقة بكلتا يدي بذراعه اليمنى، أثرثر بلا انقطاع عن زياراتي السابقة للمتحف.

عند باب المتحف نفضنا المظلة من الماء العالق بها ثم طويناها ودخلنا. ملت على مريد وقلت بصوت هامس: «قبل أن نصعد إلى أعلى لكي ترى «الغرنيكا»، أريد أن أطلعك على سر صغير!» دلفنا من باب يسارنا إلى قاعة للعرض. كانت اللوحة الصغيرة التي بحجم كُرَاسٍ مدرسي في مكانها على الجدار بين عدد من اللوحات الصغيرة الأخرى.

- أردتك أن ترى هذه اللوحة.

وقفنا معا نتأمل لوحة «المينوتور» لبيكاسو التي رسمها كغلاف لمجلة فنية عام ١٩٣٣. عاودني الشعور، كما في المرتين السابقتين، بأن تلك النظرة في عيني الثور الأسطوري تهمس إليّ بكلام كثير عن الوداعة والبراءة وشيء من حزن أو انكسار وربما أشياء أخرى عن مخلوقات ومساحات من الإحساس أفلتت في الهمس من أذني المصغية.

- هذا المينوتور المسكين في الأسطورة، هو الذي يحمل الأرض على رأسه!

- إنني أتعاطف معه كأنه أنا!

- لماذا أسميت اللوحة سرا؟

- لا أدري!

وصعدنا لمشاهدة «الغرنيكا». دخلنا من باب القاعة، كانت في مكانها تغطي الجدار المواجه بالكامل، لوحة بألوان الصور الفوتوغرافية في الصحف اليومية، أسود ورمادي وأبيض، في أقصى اليمين شخص يرفع يديه ورأسه إلى أعلى مستنجدا بطاقة مربعة من الضوء ولا يصل. وامرأة تطل من نافذة بأعلى يمين اللوحة برأس مندفع ويد تقبض بعزم نبية على مصباح صغير، مضاء بفتيل، والمصباح يلامس آخر أكبر يمزج بين أشكال المصباح الكهربي والشمس والعين. ومن الزاوية اليمنى بأسفل اللوحة تركض امرأة باتجاه الحدث بمركزها، مذعورة مشرئبة العنق تتطلع، رعبها صار تشنجا في أصابع اليدين والقدمين وحلمتي الثديين. ومركز اللوحة حصان يصهل ساعة يهوي تتكسر قوادمه، والفارس القتيل مقطع الأوصال تحته. رأس ويدان. في الرأس عينان مفتوحتان وفم فاغر يحتج ويصرخ، أم أنه يسأل لماذا؟ ويد مفتوحة يجاوب تصالبها المتشنج أيادي المشرئب للنافذة والمرأة الراكضة وثكلى تحمل ابنها القتيل.

ويد الفارس الأخرى تقبض على خنجره المكسور وزهـــرة. وبأعلى يسار اللوحة طائر يشرئب للضوء، هل هـــو ذبـــيح؟ ورأس ذلك الثور المهيمن شاهدا وساكنا وباقيا كتراب الوطن أو كالتجدد في الوجود.

- ربما سميت تلك اللوحة الصغيرة سرا لأنني كنت أفكر فيها في ضوء «الغرنيكا».

- «المنيوتور» تسر لك، أم هذه فهي البيان بعينه، إنهـــا بيان المذبحة!

ثم رحنا نشاهد مجموعة السكتشات التي بدأها بيكاســـو بعد أيام من معرفته بخبر قصف القرية (*).

(*) في ٢٧ أبريل ١٩٣٧ قصفت الطائرات النارية – إســـهاما في مساعدة قوات فرانكو الفاشية – قرية غرنيكا بإقليم الباسك بأسبانيا، واستمر القصف ثلاث ساعات، وبلغ عدد الضحايا ٦٥٤ قتيلا و ٨٨٤ جريحا، في مايو رسم بيكاسو ٦ سكيتشان حول الموضوع ثم تابع فـــي الأيام التالية رسم سكيتشات أخرى، وفي ١٠ مايو بدأ في رسم اللوحة ، وفي يونيه كان قد أنجزها. نقلت اللوحة من باريس إلى نيويورك حيث بقيت معروضة في متحف الفن الحديث حتى نقلت في أكتـــوبر ١٩٨١ إلى متحف البرادو بمدريد .

- هذه المرأة العاصفة المطلة بمصباحها على المشهد كانت بذهن بيكاسو منذ تصوره الأول عن اللوحة، إنها موجودة منذ السكيتش الأول.

- وكذلك الحصان.

- و«إن من البيان لسحرا».

- وغضب الفنان وحده لا يأتي بذلك البيان الساحر! لا بد أن تتوفر لديه قدرة فذة على صنع تكوين دال ومقتصد ومتناسق إلى حد الصرامة الهندسية!

كان المطر ينهمر غزيرا على السقف الزجاجي للقاعة، محدثا صوتا راح يعلو ويتصاعد، فارضا نفسه على المكان وعلينا. قلت لمريد إن في المتحف صورا أخرى لبيكاسو ومجموعة جميلة لموديلياني، ولوحة يجب ألا تفوته لسيكييروس، وأخرى اسمها « الزاباتستاس » لفنان من أمريكا اللاتينية نسيت اسمه. ولكني كنت أتوقع، كما حدث يوم شاهدت «الغرنيكا» للمرة الأولى، أنه يفضل ألا يرى شيئا آخر على الأقل بعدها مباشرة.

- ما رأيك في تناول كوب من القهوة؟

نزلنا الدرج إلى الدور الأول بحثا عن المقهى المشار إليه في دليل المتحف. مررنا بباب زجاجي كبير يفضي إلى حديقة بها بعض التماثيل، كان المطر ينهمر بغزارة، ولم يكن في الحديقة أحد. وجدنا سهما يشير إلى باب المقهى. دفعنا الباب الزجاجي ودخلنا. كان المقهى دافئا وصغيرا وأنيقا. جلسنا نأكل في صمت.

- فيمَ تفكر؟

- في مذابحنا التي لم يرسمها أحد بعد!

كنت أرشف قهوتي وأدخن وأنا جالسة في مواجهة مريد، أفكر في أن « الغرنيكا » هي أشهر لوحة سياسية في هذا القرن، وأتساءل عن الذي يجعل الفن فنا، وعن الذي يجعله هكذا مختلفا ومتميزا عن كل شيء سواه. ثم أحدق بخيبة أمل إلى الكوب الذي أصبح فارغا.

- هل تشرب قهوة أخرى؟

وأحمل كوبين آخرين من القهوة يتصاعد البخار منهما نرشفهما في هدوء ثم نمضي لاستكمال جولتنا، نمر بالباب الزجاجي للحديقة، توقف المطر.

- هل تخرج؟

خضرة الحديقة مغللة بشيء من بخار. العشب مبلل وأوراق الشجر مثقلة بحبات المطر البلّورية. نخطو في الحديقة كأننا جديدان على أرض جديدة، تماثيل من البرونز تلتمع بالبلل. تمثال كبير لبالزاك من صنع رودان وعنزة من الحديد المطروق لبيكاسو، وحدة نحتية اسمها الأسرة لهنري مور، امرأة عارية مضطجعة فوق مجرى مائي صغيرة تحيط بها خضرة النباتات. طقس غائم كأنه الغسق والتماثيل تفصح عن حضورها في الصمت المطبق الذي يلف الحديقة، وشيء من خوف يتسرب إلى نفسي. هل هذه التماثيل جماد أم أنها كتلك التي شاهدا الأمير موسى بمدينة النحاس في ألف ليلة وليلة، حياة تجمدت لوقت عابر؟

هذا المكان المسكون بالتماثيل والأخضر والمطر هل يخيفني أم أن شيئا فيه مكثف وفذ كلحظة الإخصاب تغلب روحي وتبعث الدمع من عيني؟ «وما الذي يجعل الفن فنا يا مريد؟» ولا أنتظر إجابة وأمسك بيده ونذير ظهرنا للحديقة دالفين من الباب الزجاجي إلى داخل المبنى.

وبعد ساعات من المشاهدة في قاعات المتحف نغادر حاملين ملظلتنا، سائرين في الشارع الذي لم يعد مبللا، ويبدو

ونحن نرى الطريق المزدحمة بالرائحين والغادين والسيارات الخاصة والأتوبيسات أننا قد وصلنا لتونا من سفر وأن علـــى عيوننا أن تعاود التآلف مع ذلك الضوء المختلف. ثم نعــود نعلّق ساخرين على جناح الفن الحديث جدا، آخر ما شاهدناه بالمتحف. نشارة خشب وإطار سيارة قديم في زاويـــة، هــذا تكوين فني، قاعدة خشبية لمرحاض يحيط بها شـــباك، هــذا تكوين آخر. ويضحك مريد قائلا: « يبدو أننا قد أصبحا مـــن المحافظين! » ثم يسارع إلى فتح المظلة اتقاء للمطر الـــذي عاد ينهمر فوق رأسينا.

دفعنا حساب الفندق وحملنا حقيبتينا الصغيرتين والمظلة وخرجنا إلى الشارع. في الوقت متسع، ســنذهب لمشـــاهدة العرض البورتوريك، وبعدها نتجه إلى محطـــة الأتوبيســـات المركزية نتناول الغداء في أحد مقاهيها، ثم نركب الأتـــوبيس الذي يغادر إلى أمهرست في تمام الثالثة. سرنا باتجاه تقاطع الشارع الرابع والثلاثين والشارع الخامس ثم انعطفنا يســـارا قاصدين المنطقة التي سيجري بها العرض.

أتتنا، قبل أن نصل، دقات الطبول، وكلما اقتربنـــا مـــن المكان علا صوت القرع مصحوبا بذلك الصـــخب المميـــز

لتجهر الناس في عيد شعبي. ثم بدأنا نشق طريقنا وسط آلاف الأهالي المحتشدين على جانبي الطريـق، نحـاول أن نجـد موطئ قدم يمكننا من المشاهدة. كان من الواضح أن المرور العادي قد حُوّل لأجل موكب السيارات والعربات المشـاركة في العرض والتي راحت تمر من أمامنا مغطـاة بـالحرير اللامع ذي الألوان البراقة، والأعلام المرفوعـة، واللافتـات الكبيرة المزينـة التـي تحمـل أسـماء الهيئـات الشـعبية البورتوريكية. يعتلي العربات حسان سمراوات فـي أثـواب تكشف عن العنق والذراعين وتضيق عند الخصر وتنطلـق فضفاضة تغطي الساقين، أو في أرديـة تتـرك الـذراعين والفخذين عارية كملابس البحر تحمِّلها أوشحة زاهية اللون. ثم تمر وحدات من الأطفال والشباب والفتيات في صـفوف متراصة منتظمة تتلوها وحدات من العاملين في شتى مناحي النشاط الذي يسهم فيـه البورتوريكيـون. ويدهشـنا طـول الموكب وضخامته، ويدهشنا أكثر حشد الأهالي على جـانبي الطريق. آلاف من الرجال والنسـاء والأطفـال، عشـرات الآلاف، غابت دكنة الأسفلت تحت نسيجهم البشري الزاهي، الوجوه الحنطية، ألوان الملابس المتعددة، البالونات الحمـراء

والزرقاء والخضراء والبنفسجية، وآلاف الأعلام الصغيرة ذات المثلث الأزرق والخطوط البيضاء والحمراء مصنوعة من الورق ومثبتة بأعواد خشبية دقيقة في أيدي الكبار والصغار. وبائعو المثلجات والنقانق نصبوا موادهم الخشبية في الخلفيات، والشباب الوطنيون ألصقوا على قمصانهم وبناطيلهم شعارات تقول: «أنا فخور لأنني بورتويكي» أو «قبِّلني فأنا بورتوريكي»، وفتيات سمراوات ممتلئات الأرداف علقن أقراطا معدنية تحمل رسم العلم. كانت بورتوريكو التي تقطن نيويورك قد خرجت عن بكرة أبيها إلى الشارع لتشاهد في المرآة نفسها فتتبدد بعض مخاوفها أمام وجودها الجماعي المميز.

يقترب منا شاب نحيل ويعرض علينا إحدى الجرائد الراديكالية لنشتريها فأقول له مبتسمة: «إننا لا نقرأ الإسبانية!» فيتحول عنا في غضب ظنا أننا نسخر منه، فهو لا يتوقع إلا أن نكون بورتوريكيين. أصيح عليه: كومبا نيرو: إننا عرب! » ولا أعرف إن كان قد سمعني، ويضيع وسط الزحام.

- الجزيرة الفريسة انقض عليها النسر الأمريكي عام ١٨٩٨ وها هو ما زال ينهش! لم أكن أتصور أن بنيويورك هذا العدد الضخم من البورتوريكيين!

- ثلاث سكان الجزيرة مهاجرون إلى الولايات المتحدة ويعلمون أساسا في نيويورك، وشيكاغو، ويواجهون شتى المشاكل المرتبطة بالفقر والبطالة وعدم معرفة اللغة وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي والثقافي، إنهم يعيشون في قاع السلم الطبقي والعنصري، وهذا يزيد طبعا من حسهم الوطني كبورتوريكيين. ومع ذلك، قال لي صديق منذ فترة، إنه لو أجرى استفتاء الآن للاختيار بين استقلال الجزيرة عن الولايات المتحدة وانضمامها النهائي لها كولاية جديدة من ولاياتها، فإن هناك احتمالات كبيرا أن تأتي نتيجة الاستفتاء في صف الانضمام... هل تصدق! واضح أن الولايات المتحدة بسياساتها الاقتصادية في الجزيرة قد جعلت البورتوريكيين يشعرون أن حرمانهم من وضعهم كرعايا للولايات المتحدة – وهو الوضع الذي يسمح لهم بالهجرة إليها بحثا عن عمل – سوف

يضعهم في مأزق. لقد عرّتهم إلى الحد الـذي صـار عليهم أن يفكروا مرتين إن لم يكن من الأفضل لهم أن يحتموا بالمظلـة الإمبرياليـة. وتعمـل المجموعـات الراديكالية والمنظمات الحزبية على توعيـة الأهـالي بخطورة موقف كهذا، وبأن هذه المظلـة الإمبرياليـة ليست سوى جناحي النسر الذي ينهش!

- علينا الآن أن نتوجه إلـى المحطـة لكـي لا يفوتنـا الأتوبيس.

قلت لمريد مداعبة:

- لا يصح أن تأتي إلى نيويورك وتغادرها ولا تـزور تمثال الحرية أو تشتري نموذجا مصغرا منه أو ترسل لأصدقائك بطاقة تحمل صورته!

- سوف نطلب من هذه الأسرة علما لبورتوريكو!

١٢

قال أستاذي مداعبا حين ذهبت إليه لأستمع إلى رأيه في رسالتي:

- لماذا لم تكتبي الرسالة بذلك التمكن الذي ترجمت بـه قصيدة مريد «سعيد القروي»؟

- إذن أعجبتك القصيدة؟

- أعجبتني جدا، إنها ويتمانية!

ضحكت زوجته:

- لا أحد عنده يرقى إلى مرتبة ويتمان!

- أفهم من ذلك أن الرسالة لم تعجبك؟

- لم أقل ذلك! وضحك.

كان الأستاذ يجلس كما اعتاد في الآونة الأخيرة على الأريكة الملاصقة للنافذة التي تغمر الحجرة بالضوء، وبجواره مائدة صغيرة صفت عليها بعض أوراقه وكتبه، ومشاية معدنية صار يستعين بها في الحركة منذ زلت قدمه قبل شهر وأصيب بكسر في أعلى الساق. جلست بجواره لكي

أستمع إلى ملحوظاته التفصيلية في البحث. وحين انتهينا قال مبتسما:

- باستطاعتنا الآن أن نحدد موعد الامتحان، ما رأيك في ٣٠/٦؟ إذا كان الموعد مناسبا لك وللممتحنين الآخرين فسوف أعلم إدارة الجامعة بكتاب رسمي. ويا عزيزتي ستنفردين بالامتحان في هذه الشرفة الجميلة المطلة على الغابة هنا في هذا البيت!

لم تكن التعديلات المقترحة من قبل المشرف لتتطلب جهدا كبيرا، ساعة أو ساعتين أقضيهما بين حين وآخر في المكتبة بحثا عن معلومة محددة، أو في البيت أعيد صياغة فقرة تفتقد الدقة أو جملة مبهمة. ولكني كنت قد انتهيت من البحث وانفلت من دائرة جاذبيته التي استمرت طوال عملي فيه، وعادت تساؤلاتي بخصوصه من ذلك النوع الذي يشغل نجارا يحمل صناعته الجديدة لكي يعرضها على الآخرين، تساؤلات تختلف عن تلك التي شغلته وهو يعمل بين الأخشاب والمسامير وسطل الغراء وعدة النجارة.

وكنا نسكن ذلك البيت الصغير نفسه الذي تحدث ألواح سلمه الخشبي صوتا في صعودنا ونزولنا، والذي كان علينا

أن نتجنب باستمرار من اصطدام رأسينا بسقفه المائل عند طرفي الحمام والمطبخ. كنا فرحين لوجودنا معا، أنا ومريد، ولممارستنا تلك التفاصيل الصغيرة التي تؤكد هذا الوجود المشترك. نذهب لشراء لوازمنا اليومية، نحمل أكياس ملابسنا المتسخة إلى المغسلة، ننظف البيت، نطهو الطعام، نتسكع أمام واجهات المحال، ندخل مقهى، نجلس على العشب، نتابع من النافذة العريضة لحجرة نومنا هطول الأمطار على الأسفلت وضوء السيارات ومصابيح الشارع، نخرج إلى الطريق نتابع رائحة العشب المبتل بعد توقف المطر، يأخذنا سحر عازف أسمر وهو ينفخ في نفيره النحاسي في اقتدار شامخ كأنه رسول جديد، يأتينا مايكل بالطفلين، أو يدعونا إلى بيته، يفاجئ ابن زوجته بأنه اصطاد له ثعبانا، ويفاجئ صديقتي العجوز بحضوره القسم حافي القدمين ولا يلبس إلا الشورت. ندعو أصدقاءنا الأفرو – أمريكيين إلى بيتنا ، ونذهب إليهم في بيوتهم وندخل في سياقهم كأننا منهم.

في انتظار الامتحان اتسمت حياتنا اليومية بتلك الاعتيادية الأليفة التي تؤكد بعض الأحداث المفاجئة أو المختلفة، إنها اعتيادية وأليفة.

- جاءنا طرد!

قال مريد وهو يدفع الباب ويدخل علبة كرتونية صغيرة عليها طوابع وأختام بريدية. وكطفلين صغيرين يستطيل عنقاهما المشرئبان استباقا للمفاجأة في حب استطلاع ونفاد صبر، نفك الخيط ونفتح العلبة.

- مانجو... وزهرة!

أربعة أنواع مختلفة من ثمار المانجو وزهرة الغاردينيا أرسلتها لنا آنَّا من بورتوريكو. في فيلم كوبي شاهدته قبل شهور برفقتها يسأل شاب فتاة « ما اسمك؟ » تقول «لوسي» فيقول: «لا، بل غاردينيا!» وما الغاردينيا يا آنَّا؟ تصفها لي، وهاهي ترسل بواحدة، زهرة بيضاء، نفاذة الرائحة أحاطت عرقها بقطعة قماشية مبللة حتى تصل إلينا قبل أن تذبل، ولم تكن الزهرة قد ذبلت تماما.

وتحدثني راشنا صديقتي الهندية بـــالتلفون وتقتـــرح أن نرافقها وصديقها راجيندر في رحلة بالسيارة إلى كندا لخمسة أيام. أتحمس للفكرة يقلق مريد للأمر.

- الامتحان؟

- إنه يوم ٣٠/٦ سنعود قبل ذلك بأربعة أو خمسة أيـــام!

تحملنا سيارة راجندر الفـــولكس فـــاغن القديمـــة ذات صباح مشمس شمالا باتجاه مقاطعة أونتـــاريو بكنـــدا. يجلس راجندر خلف عجلة القيادة، أنيقا كعادته، يلـــف رأسه بتلك العمامة الواجب لبسها على السيخ ويحـــيط معصمه بأسواره من فضة، وبجواره تجلـــس راشـــنا تنظر من حين لآخر في خريطة معهـــا لتدلـــه علـــى الطريق، وأنا ومريد في المقعد الخلفي. ينتصف النهار ونتوقف لنأكل بعض ما حملنـــاه مـــن ساندويتشـــات. تتعطل السيارة فندخل قرية في الطريـــق لإصـــلاحها. تغيب الشمس ولم نصل تورنتو بعد، ثم يهبط الليـــل. ونتوقف على مشارف المدينة لنأكـــل مـــرة أخـــرى ولتتصل راشنا بصديقة لها دعتهـــا للإقامـــة ببيتهـــا. سنوصل راشنا أولا ثم نبحث لنا عن فنـــدق، ولكننـــا

نضيع في المدينة الكبيرة، نسأل ثم نعود نفقد طريقنا بين سكك جبلية تحت أمطار لا تنقطع. وأخيرا نصل وقد جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. فتدعونا صاحبة البيت لقضاء الليلة عندها «تأخر الوقت بكم، ونحن بعيدون عن مركز المدينة، ستقضي راشنا الليلة معي في البيت، وبالحديقة كوخ به مكان لثلاثتكم». كوخ خشبي صغير تحت الأمطار في الغابة، مشهد من قصيدة، غير أنني في المشهد منهكة ولا أستطيع النوم. هل هو اختلاف المكان أم خوف تسببه قرقعات الرعد وصوت انهمار المطر على سقف الكوخ الذي يبدو كأنه سوف ينهار فوق رءوسنا؟ ولكن الغابة في الصبح، بعد ليلة من الأمطار، تتألق كعاشقة قامت لتوها من فراش الحب. بهية هي الغابة بعد المطر، مثقل أخضرها بالبلل، تلتمع دكنة جذوع أشجارها العتيقة كأنها ليست عتيقة ويهمس طينها الرطب القديم بأشياء مبهمة عن خصب وبذور خليقة. نتجول في المكان في انتظار أن ينتهي صاحبنا الهندي من لف عمامته وترتيب شاربه المبروم من طرفيه إلى

أعلى قليلا حسب تقاليد السيخ، ونشرب قهوتنا الصباحية شاكرين صاحبة البيت. ونؤمن مبيتنا لليالي الثلاث التالية في فندق.

نشاهد المدينة. نزور متحف فنونها ومركز العلوم بها وبرلمان الولاية، نتسكع في شوارعها التجارية، نندهش دهشة الريفيين أمام واجهات محلات الجنس الكثيرة، نتوغل في الشوارع الخلفية حيث تغلب الأقليات العرقية من أصول هندية وصينية وإفريقية، نلتقي ببعض معارف راجندر من السيخ الذين خلعوا العمامة والأساور الفضية وحلقوا اللحية والشارب ليدخلوا في السياق وبقوا خارجه. ونختتم زيارتنا بقضاء ليلة في «محل أونتاريو» الذي يضم من الملاهي أنواعا شتى. وفي الصباح نغادر المدينة كسياح طيبين قضوا وقتا طيبا، وظلت معرفتهم بالمكان سطحية وعابرة.

وفي طريق العودة نتوقف لمشاهدة شلالات نياغارا وقضاء بعض ساعات في المكان. نهبط إلى باطن الأرض في مصعد، ندخل حجرة فسيحة، نستبدل أحذيتنا فيها بأحذية من مطاط، ونلبس معاطف واقية من البلل لها أغطية للرأس، ثم ندلف إلى أنفاق تقودنا إلى شرفة نرى فيها اندفاع

الشلالات من فوق رءوسنا. يملأ الأنفاق هدير المياه المندفعة كما ضجيج دوران المخارط والأفران والآلات في مصنع هائل. يصم الصوت آذاننا؛ فنصرخ لكي نسمع بعضنا. يبلل رذاذ الماء وجوهنا فنضحك كأطفال موزعين بين فرحة المغامرة والخوف.

نصعد لنسير بمحاذاة السور الحجري للنهر، نشهد من على الشلالات المندفعة. ويلتقط لي مريد صورة، سوف أظهر فيها جالسة على السور ومن خلفي الشلالات، بملابسي الزرقاء وشعري المربوط خلف أذني بشريط أسود دقيق، سوف يظهر حتى حذائي البني الصغير الذي لا يلمس الأرض. ولكن لا شيء مما يضطرم في المكان أو في نفسي سوف يظهر!

ثم نعود إلى السيارة «الفولكس» القديمة التي ألفناها كما يألف المسافر الوحيد حماره، نولي وجهنا جنوبا. يهبط الظلام علينا في تلك العلبة الصغيرة التي تضم أربعتنا وتقطع بنا الطريق. يتبادل مريد وراجندر القيادة، وأنا وراشنا الذكريات في المقعد الخلفي بصوت خافت كالهمس. تحكي راشنا عن أبيها وأمها اللذين ماتا، وعن تقاليد ديانتها الزرادشتية، وعن

عمة لها لا تغفر لأحد أن يدخن سيجارة في وجودها لأن فعلته استهانة بالنار المقدسة، وعن أخيها الذي رزق طفلا وسماه «رياض»: «أليس الاسم عربيا؟». ونتوقف مرتين لإصلاح عطل في السيارة، ومرة لتناول عشاء سريع. وتضحك السيدة البدينة العاملة بالمقهى وهي تسألنا: «هل أضع لكم بصلا في الهامبورغور؟» ثم تستطرد وقد اختلطت نبرتها الضاحكة بشيء من شكوى: «أنا أحب البصل كثيرا وزوجي لا يحبه، فلا آكله إلا حين يسافر!» ونودع المرأة ونعود إلى مركوبتنا الألمانية التي تحملنا هذه المرة دون خذلان إلى أمهرست فنصلها بعد انتصاف الليل بساعتين.

فتحت التلفزيون وجلست على الأرض مسندة ظهري إلى الحائط المواجه أشاهد برنامج تحقيقات تلفزيونية. انتهت فقرة وبدأت أخرى تحت عنوان «احذروا من تجارة الأطفال!» قال المذيع:

- هناك عائلات كثيرة حرمت من الأطفال وهي تستعيض عن ذلك بالتبني. ولدينا هنا حالة من هذا النوع، وإن كانت تتفرد بملابسات خاصة. فالآنسة «ام» من ولاية فرجينيا وجدت نفسها حبلى ولم تكن

راغبة في الإنجاب ولا في تحمل مسئولية طفل، خاصة وأنها ليست متزوجة، ولقد جاءها عرض بتبني الطفل بعد ولادته من قبل أسرة ثرية من نيويورك تريد طفلا أبيض من صلب يهودي. ولما كانت تلك المواصفات تنطبق على الآنسة «ام» فقد تم الاتفاق من خلال محام على التالي:

أ – يقوم المتبني بتحمل كافة نفقات الآنسة «ام» طوال فترة الحمل والوضع.

ب– تقوم الأم بعد الولادة مباشرة بتسليم الوليد.

ج– وفي المقابل يُدْفع لها مبلغ محدد من المال يتفق عليه.

- يا مريد تعال.

انتقل المذيع لمقابلة المرأة في بيتها بولاية فرجينيا، فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين على الأرجح. لا يبدو عليها ذكاء أو تميز خاص، ولا تبدو غبية أيضا. سألها:

- لماذا لم تريدي الطفل، لأنك لست متزوجة؟

- ليس تماما. لم أكن مستعدة لتحمل مسئولية طفل، نمط حياتي لا يسمح بوجود طفل!

- وما الذي حدث، أقصد حين وقعت هذا الاتفاق؟

- أخذوني إلى مكان في فلوريدا وجدت فيه فتيات في مثل وضعي، حوامل ولا يردن أطفالا وقررن إعطاء أطفالهن للتبني.

- مقابل مبالغ محددة؟

- نعم ومقابل دفع مصاريف الرعاية أثناء الحمل والوضع.

- ثم ماذا حدث؟

جاء مريد وبيده صينية عليها كنكة القهوة وفنجانين.

قلت له:

- اجلس بسرعة، هذه المرأة باعت طفلها وهو لا يزال ببطنها!

- انتقلت إلى نيويورك للولادة بأحد مستشفياتها. بعد الولادة بيوم كان علي أن أسلم الطفل بيدي حسب شروط العقد المكتوب.

- هل رأيت الطفل؟

- لا، لم يسمحوا لي بذلك. كان علي أن أسلمه بنفسي ولذلك فلقد غطوه وقمت بتسليمه للمتبني في وجود المحامي. والآن بعد عام...

- لم تشعري بانشغال أو قلق أو اشتياق للطفل؟
- ليس بشكل خاص، فأنا لم أره ولم أرتبط به.
- نعم، ما الذي حدث بعد عام؟
- اتصل بي المحامي وقال إن الأسرة المتبنية قد اكتشفت أن استجابات الطفل غير عادية وأنه قد يكون متخلفا وهم لا يريدونه. ولا أدري طبعا مدى صحة كلامهم لكن العقد لا ينص على أي مسألة من هذا النوع.
- هذا يعني إنك لا زلت غير راغبة في الطفل؟
- قلت لك إنه لا مكان لطفل في حياتي. ثم إنني لم أر هذا الطفل وقد لا يكون ابني.. ثم إن هناك عقدا...

قال مريد وهو يقوم ليقف بجوار النافذة:

- الحلم الأمريكي الفريد!

ولكني لم أقل شيئا. بقيت في مكاني محدقة في شاشة التلفزيون وقد توقفت عن متابعة الفقرات التالية للبرنامج... كنت أفكر فيما حل بطيبة في الأسطورة اليونانية، قتل أوديب أباه وعاشر أمه دون أن يعلم فانتشر الطاعون في طيبة وأصاب العقم أهلها. وهذه المرأة وقعت عقدا قانونيا ملزما سلمت بمقتضاه ابنها وقبضت حقه بالمال المصروف. فأي

لعنة سوف تسري؟ أوديب يفقأ عينيه وهذه الشقراء المتزينة مختوم على قلبها وعينيها.

قلت وأنا أقوم إلى دورة المياه:

- إنه الختم الأمريكي الفريد!

* * *

قال أستاذي وهو يبتسم: «الآن أعطيني الورقة» وكان ذلك إيذانا بانتهاء الامتحان. مددت له يدي بالورقة المطبوعة التي تحمل عنوان الرسالة واسمي ثم أسماء أعضاء لجنة الامتحان الثلاثة مسبوقة بعبارة «أقرت شكلا ومضمونا» وقَّع الورقة ومررها على العضوين الآخرين ثم قال وهو يتكئ بيديه على المائدة التي أمامه لينهض:

- تعالي هنا الآن!

ثم بمزيج من السلطة والحنان الأبوي:

- إنك بنت جيدة، لقد أحسنت عملا!

وقبَّلني، ثم قبلني الآخرون وهنئوني. ولكن الأستاذ بعبارته you're a good girl! كان قد وضع اللحظة في سياق أليف يختلف عن السياق التقليدي لمنح درجة أكاديمية كانت تلك البساطة تشبهه تماما كمناداة طلاب له «بسيد»

اختصارا لسيدي، ودورات التنس التي كان يشترك معهم فيها، والحذاء الكاوتشوك الذي درج على لبسه.

ورحت ألملم أوراقي استعدادا للمغادرة، كان الجو صحوا مائلا للحرارة وتغريد العصافير يملأ أرجاء المكان. قلت لمايكل وأنا أضحك:

- الآن تستطيع أن تقود سيارتك بما يحلو لك من سرعة.

كان الأمر سيكون مؤسفا فعلا لو مت في حادث سيارة وأنا في طريقي لمناقشة الدكتوراه!.

غادرنا بيت أستاذي كما جئنا، مايكل في مقعد القيادة ومريد في الكرسي المجاور وأنا أجلس في وضع نصف مريح على ركبتي مريد. وفي أقل من ثلث ساعة كنا على مشارف أمهرست، ولكن مايكل تجاوزها إلى التلال المحيطة.

- إلى أين؟

- إلى أماكن شديدة الروعة!

وراح يقود سيارته في طريق جبلية متعرجة وضيقة تكاد أشعة الشمس لا تنفذ إليها من كثافة الأشجار فيها. أشجار عالية كأن لا نهاية لها تجاورها شجيرات ونباتات لا

تعلو عن الأرض أكثر من شبرين، أشجار لها جذوع رفيعة وناعمة، وأخرى جذوعها خشنة ومتغضنة يبدو على البعد ما فيها من شقوق، أشجار أوراقها عريضة بحجم كفين متصلين وأخرى لها أوراق صغيرة. يتعدد أخضر الشجر وبني جذوعها، تتشابك الألوان وتتصل. وثلاثتنا نتابع المشهد في صمت أقطعه بقولي:

- ليتني أعرف أسماء كل هذه الأشجار.

ويقول مايكل:

- في جامايكا الخضرة أكثف من ذلك.

ثم نعود ثانية للصمت وأشعر بشيء من إنهاك، فهل أبدو كما في تلك الصورة في جامعة القاهرة، بعد إعلان لجنة الامتحان منحي درجة الماجستير؟ كنت قد خلعت الرداء الجامعي الأسود الذي قدمت به الامتحان حسب التقليد المتبع وقفت بين أصحابي وزملائي لكي تلتقط لنا صورة. ولم تُخْفِ ابتسامتي العريضة – المقصودة للصورة – الإنهاك الواضح على وجهي. خرجنا من باب كلية الآداب نستقبل ليل القاهرة وطقسها الخريفي في صخب محبب. كانت ساعة الجامعة تدق الحادية عشرة. هل هي الطقوسية في المشهد أم

ألفة الصحاب وتجمعهم للمشاركة، أم أنه ارتياح المرأة لإنجاز حلمها القديم بالانتماء للمكان، أم أنها جميعا تضفي على اللحظة بهجة المناسبة السعيدة؟

ومايكل لا زال يتوغل في الطرق الجبلية بدون إسراع هذه المرة، وأنا أجلس على ركبتي مريد تلتقي عينانا فيربت على كتفي ويهمس:

- مبروك!

فابتسم له وأتذكر أن أبي ظل حتى وأنا على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية موزعا بين رفضه لالتحاقي بالجامعة وحماسه لتفوقي الدراسي ورغبته في الاستمرار في تعليمي. قلت ضاحكة:

- قبل دخولي الجامعة بعام واحد كان أبي يقول: إن من يدخل ابنته الجامعة حمار!

قال مايكل بجدية مدعاة:

- أتفق مع أبيك في هذا الرأي!

ضحكنا وبدا كأن هذا الضحك وضع حدا بين الصمت الذي لفنا ونحن نتابع الأخضر في التلال والثرثرة الصاخبة التي أعقبتها.

أوصلنا مايكل إلى البيت وذهب. قال مريد:

- انتظري هنا، سأصعد لإحضار آلة التصوير، سألتقط لك صورة!

وحين عاد مشرعا آلة التصوير الصغيرة في يده قلت ضاحكة:

- صورة تذكارية!

- بمناسبة حصولك على الشهادة الكبيرة!

- كانت ستي فاطمة أم أبي تدعو بعد الصلاة طبعا ليس بالشهادة الكبيرة! كانت تقول: «روحي يا رضوى يا بنتي إلهي يرزقك بعريس الغفلة والباب بلا قفلة!».

وقفت أمام مريد الذي راح يلتقط لي عدة صور. قبل شهر كنت قد أتممت عامي التاسع والعشرين. لا بأس، قلت لنفسي وأن أفكر في الكلمات الساخرة لأستاذ الرياضيات الذي كان يعملنا بمدرسة "الليسيه": «أقصى طموح الواحدة منكن – لو أفلحت – هو الحصول على شهادة الإعدادية لكي تحملها معها إلى بيت الزوجية فتقول لنفسها بارتياح: أنا امرأة متعلمة!» ابتسمت لآلة التصوير ولفكرة أنني وأنا أعدو خائفة من كلمات الأستاذ والحراملك المنتظر قد نجحت مرة

أخرى، قفز حاجز وأفلت. وفي الصور التي استلمناها بعـد أسبوع كانت هناك امرأة صغيرة تميل للنحافة، يصل شعرها الأسود إلى الكتفين، تلبس قميصا بنيا وجونلة سكرية اللـون، لا تخفي الابتسامة التي تعلو شفتيها. إن بالوجه شـيئا مـن شحوب وتعب. فهل كان ذلك من أثر الامتحان أم أنه الإنهاك الذي يعقب قفزة كبيرة، يستجمع المتسابق لها كل ما أوتيـه من قوة؟

١٣

- إنه الرابع من يوليه، يوم عيد الاستقلال الأمريكي!
- وبداية الاحتفالات بمرور مائتي عام على إعلان الاستقلال.

مررنا بواجهات المحلات التجارية المزينة بأعلام الأمريكية. ابتعنا الجرائد وجلسنا على مقعد خشبي في الحديقة المجاورة لكلية أمهرست لمطالعتها، وكان الجو صيفيا يميل إلى الحرارة.

قلت لمريد وقد بهرتني بلاغة وجرأة ما قرأ:

- اسمع يا مريد، هذا خطاب لفريدريك دوغلاس القائد الأفرو – أمريكي الذي ولد عبدا وعلَّم نفسه واشترى حريته وصار مدافعا عن تحرير العبيد في منتصف القرن الماضي، تعيد « النيويورك تايمز » نشر مقتطفات منه. والخطاب الذي ألقي في روشيستر بنيويورك في ٥ يوليه ١٨٥٢ بعنوان: «الرابع من يوليه ومعناه للزنجي الأمريكي » بعد المدخل الذي

يسأل دوغلاس فيه الحاضرين الذين كانوا من البيض طبعا: «لماذا طلبتهم مني أن أتحدث إليكم اليوم؟ وما شأني وشأن الذي أمثلهم بيوم استقلالكم الوطني؟» يقول:

إن عيدكم المجيد هذا لا يشملني، واستقلالكم الرفيع يكشف المسافة الشاسعة التي تفصلنا. النعم التي ترفلون اليوم فيها لا نشارككم إياها. التركة الغنية التي خلفها لكم آباؤكم تركة العدالة والحرية والرخاء والاستقلال، تشتركون فيها ولا أشترك. الشمس التي أتت لكم بالضوء والبلسم الشافي أتت لي بالسياط والموت. وهذا الرابع من يوليه يومكم وليس يومي، فلكم أن تبتهجوا وعلي أن أحزن. فأن تجروا رجلا مقيدا إلى داخل معبد للحرية يتلألأ مهابة ونورا وتطلبوا منه مشاركتكم أهازيج الفرح ليس سوى تهكم لاإنساني وسخرية فاجرة». ثم يمضي قائلا: «إن موضوعي إذن، إخواني المواطنين، هو العبودية في أمريكا. وسوف أتناول هذا اليوم وخصائصه الشائعة، منظور عبد، وإنني إذ أقف هنا متوحدا مع العبد الأمريكي، حاملا لمظالمه، أعلن أنه يوم يكشف له أكثر من كل الأيام الأخرى عن مدى الظلم أسود مما هما

عليه في هذا اليوم الرابع من يوليه. فإن ننظـــر لإعلانـــات الماضي أو ادعاءات الحاضر نجد مسلك هذه الأمـــة مثيـــرا للاشمئزاز مقززا. إن أمريكا زائفة في ماضيها. زائفة فـــي حاضرها، وقد آلت على نفسا أن تكون زائفة في مســـتقبلها كذلك».

- فلنحتفظ بهذا العدد من « النيويـــورك تـــايمز » هـــذا الخطاب وثيقة. ربما النسخة الكاملـــة منـــه بالمكتبـــة وصوّريها لنا للاحتفاظ به. أكملي!

«ألا يثير الاستغراب أنه، ونحن نحرث ونزرع ونحصد ونستخدم الآلات ونبني البيوت ونشيد الجسور ونصنع السفن ونشتغل في الصفيح والحديد والنحاس والفضة والذهب، إنـــه ونحن نقرأ ونكتـــب ونحســـب ونعمـــل مـــوظفين وتجـــارا وسكرتيرين، وبيننا المحامون والأطباء والوعاظ والشـــعراء والمؤلفون والمحررون والخطباء والمعلمون، وإنـــه ونحـــن نسهم في شتى النشاطات التي يمارسها الآخرون، نســـتخرج الذهب من كاليفورنيا، نصيد الحيتان من المحـــيط الهـــادي، نطعم الخراف والأبقار في التلال، نحيـــا ونتحـــرك ونفعـــل ونفكر ونخطط ونعيش في أسر كأزواج وزوجات وأطفـــال،

وفوق كل ذلك نعترف برب المسيحية ونعبده ونتطلع بالأمل إلى الحياة الدنيا وإلى الخلود ما بعد القبر – ألا يثير الاستغراب أن يطلب منا أن نثبت أننا بشر!».

« عيد استقلالكم... ماذا يعني للعبد الأمريكي؟ أجيب إنه يوم يكشف له أكثر من كل الأيام الأخرى عن مدى الظلم الفظيع والقسوة الواقعين عليه. إن استقلالكم بالنسب له استقلال زائف، حريتكم التي تفخرون بها تحلل منحط، مجدكم الوطني عنجهية متورمة، أصوات ابتهاجكم أصوات فارغة لا قلب لها، إدانتكم للطغاة وقاحة تلبس درعا من صفيح، صيحات الحرية والمساواة التي تطلقونها سخرية جوفاء، صلواتكم وابتهالاتكم، عظاتكم وأعياد شكركم بكل ما فيها من استعراض ديني ليست بالنسبة له سوى جعجعة وزيف وخداع وفسق ونفاق، إنها ليست سوى الغلالة الرقيقة التي تخفي جرائمكم الكفيلة بإلحاق العار بأمة من البرابرة. فليس هناك أمة على وجه الأرض تقترف أعمالا دموية وصادمة كالتي يقوم بها شعب الولايات المتحدة في هذه الساعة».

« اذهبوا أينما استطعتم، ابحثوا حيثما أردتم، تنقلوا بين كل الممالك والنظم الاستبدادية في العالم القديم، سافروا عبر أمريكا الجنوبية وابحثوا في كل ظلمة، وعندما تجدون أكثرها فظاعة ضعوا حقائقكم بجانب الأعمال اليومية لهـذه الأمـة، وقولوا معي إنه في البربرية المقززة والنفاق الفاجر تتربـع أمريكا على العرش بلا منافس! ».

- وشهد شاهد من أهلها!

- بل قل شهد ملدوغ من جحرها! ولم أقرأ لـك سـوى جزء من المقتطفات المنشورة!

طويت نسخة « النيويورك تايمز » وقمنا متجهين إلـى مقهى قريب سرنا في شارع نورث بليزنت، الشارع الرئيسي بالبلدة، مرورا بالفرست ناشيونال بنك أوف أمهرست المواجه لفندق اللورد جيفري ومخفر الشرطة ثـم تجاوزنـا محـل «مأكولات لويز» والكنيسة الكبيرة ودفعنـا بـاب المقهـى الزجاجي ودخلنا.

- الطريف يا مريد أن الصفحة نفسها في الجريدة تحمل على أحد وجهيها خطاب دوغلاس وعلى الوجه الآخر صورة للنسخة الأصلية من إعلان الاستقلال.

دفعت له «بالنيويورك تايمز» وأنا أتلو من الذاكرة كطفلة تلقي قطعة محفوظات العبارة الأشهر بالإعلان: « إننا نؤمن أن هذه الحقائق بينة لا جدال فيها، إن البشر جميعا قد خلقوا سواسية، وأن الخالق قد وهبهم من الحقوق ما لا تفريط فيه، من بين هذه الحقوق الحياة والحرية والسعي من أجل السعادة».

وأكمل مريد يقرأ من الجريدة:

- « وحفاظا على هذه الحقوق تقام بين الناس الحكومات التي تستمد سلطاتها من موافقة المحكومين، وحين تتنكر الحكومة لهذه الأهداف بالنيل منها فمن حق الشعب أن يغيرها ويسقطها، ويقيم حكومة جديدة ينشئها وينظم سلطاتها على الأسس التي يرى أنها كفيلة بضمان سلامته وسعادته».

ثم استغرق مريد في قراءة صامتة لباقي الوثيقة ولم يلتفت إلى أن النادلة وضعت أمامنا القهوة التي طلبناها. نبهته لذلك فأخذ يشرب قهوته ويتابع القراءة في صمت. وأفكر في أن توماس جيفرسون الذي صاغ إعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ كان يمتلك عبيدا، وأن إبرهام لينكولن صاحب إعلان

تحرير العبيد سنة ١٨٦٣ قد قال مرة: « أنا لا أهـدف إلـى إرساء المساواة الاجتماعية بين البيض والسـود. إن هنـاك فارقا طبيعيا بين الاثنين، وأرجح أن هذا الفارق سوف يحول دائما دون أن يحيا الاثنان معا على قدم المسـاواة الكاملـة» وأرشف قهوتي الأمريكية وأتساءل إن كانت محاكمتي لهـذه الرموز الأمريكية تفتقد الموضوعية المرتكزة إلـى النسـبية التاريخية؟ لقد شكَّل هؤلاء الرجال في عصرهم قـوة دفـع للحركة التاريخية. قادوا القطار باقتدار، ولكن ما الذي يقوله فحم المحرقة؟ «إن البشر جميعا قد خُلقـوا سواسـية» هنـا المطب والمفارقة، فهل قال أحد منهم إن «هـؤلاء الهمـج» سكان البلاد الأصليين أو أولئك «السود كالشيطان» من جنس البشر، وهذا النص الذي يعلن استقلال المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة يخص من أهل البلاد «البشر» أي مستوطنيها البيض! ولكن الكلمة مشاع فمن يجرؤ على أن يحبس المطر أو أن يحول بين صوت العاصفة وآذان السجناء، من يجرؤ؟ وينحني العجوز الأبدي على كتابه يسجل أن أول من سـقط من شهداء الثورة في مذبحة بوسـطون سـنة ١٧٧٠ هـو كريسبوس أتوكس الذي تختلط في عروقه الدماء الإفريقيـة

بالدماء الهندية الحمراء. وتأتي الكلمة المشـاع للعبيـد فـي المزارع الجنوبية، تدخل تحت جنح الليل إلـيهم، تشـاركهم الهمس في الفراش فيسارعون إلى الانضمام إلى تلك الثـورة التي تعلن أن البشر سواسية. تسمح قيادة الثـورة بالتحـاق الراغبين من العبيد إلى صفوفها على أن تكافئهم بعد النصر بإعتاقهم. ولكن هذه الدنيا مصالح، وأصحاب المـزارع فـي الجنوب يريدون الحرية لهم وليس لعبيدهم، فيضغطون على الجنرال واشنطون الذي يستجيب لهم ويقرر ضـمانا لـولاء الولايات الجنوبية أن ما ينطبق على الأبيض لا ينطبق علـى العبد لأنه مملوك ولم يسمح بعد ذلك لأي عبد بالاشتراك في جيش الثورة إلا إذا كان زنجيا حرا سبق لـه الخدمـة فـي الجيش.

طوى مريد الجريدة ودفعنا حساب القهوة وغادرنا. فـي الطريق واجهتنا الأعلام الأمريكية المرفرفة، قلت:

- أتساءل أحيانا إن كان بمقدوري أن أنظر إلى أمريكـا بعين موضوعية. وكيف للملدوغ أن يتحـدث بهـدوء معملي عن خواص العقرب؟ وأين أذهب بذلك القهـر الخاص بإنسان العالم الثالث الذي ازداد حدة بـاقترابي

من تجربة العنف الاستعماري الآثم الذي تأسست فيـــه التجربة؟ وحين تستوقفني كما يحدث أحيانـــا مظـــاهر العمران الهائل وبعض المنجزات يدق فـــي ذاكرتـــي ناقوس صغير حزين، عبارة قالها أحد القـــادة الهنـــود الذين شهدوا مجزرة ووندد فـــي ســـنة ١٨٩٠ التـــي حسمت الصراع لعشرات الســـنين بعـــد ذلـــك بـــين المستوطنين الأوروبيين والسكان الأصليين. قال: «في لحظتها لم أكن أعرف كم من الأشـــياء قـــد انتهـــى. وعندما أنظر خلفي الآن من فوق تلة شيخوختي يظـــل بإمكاني رؤية النساء والأطفال المـــذبوحين مكـــومين ومتناثرين... بالوضوح نفسه الذي رأيتهم بـــه بعينـــي شبابي، وأستطيع أن أرى أن شيئا آخر قد مات هنـــاك في الطين والدماء ودفنته العاصفة الثلجية. مات حلـــم شعب. كان حلما جميلا. انكسر عقد الأمة وانفطر ولم يبق له من مركز. ماتت الشجرة المقدسة».

١٤

- الرسالة في التجليد وما إن أستلمها حتى أرسل لكم بالبريد بالنسخ الثلاث المقررة. أريد المغادرة بعد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر فأرجو الاتصال بشركة الطيران التي تتعاملون معها، لكي تصرف لنا بطاقتي سفر على حساب البعثات وترسلها لنا بالبريد، وأنا من ناحيتي سوف أتصل بها لحجز موعد السفر من مطار برادلي إلى مطار كنيدي بنيويورك ثم إلى القاهرة مرورا بروما.

كنت أتحدث تلفونيا إلى مدير مكتبنا الثقافي بواشنطون. جاءني صوته في الطرف الآخر:

- أولا مبروك ومبروك ثانية لهذه السرعة القياسية في الحصول على الشهادة. ولكن لماذا تعجلين العودة هكذا، آمل أن يكون السبب خيرا!

- الله يبارك فيك، شكرا. كل ما في الأمر أنني أتيت إلى هنا لإنجاز عمل محدد وانتهيت منه وأريد العودة إلى

مصر. (ثم وأنا أضحك) يا دكتور الغربة وحشة وأنا عاوزة أروح بلدي!

ضحك وقال:

- يا دكتورة. أمرك!

وبدأنا نعد للمغادرة وذات صباح حمل مريد حقيبة السفر الزرقاء وحملت أنا حقيبة بنية أصغر واتجهنا بها إلى مكتب البريد المركزي بشارع نورث بليزنت على بعد خطوات من البيت. داخل المكتب فتحنا الحقيبتين المملوءتين بطرود بنية صغيرة. وكنا في اليومين السابقين قد قمنا بشراء عشرات الأظرف المقوّاة ووضعنا في كل منها عددا من الكتب ثم كتبنا عليها اسمي وعنواننا في القاهرة مضافا إليها كلمة مطبوعات بخط بارز. أعطانا موظف البريد كيسا كبيرا من القماش السميك لنضع الطرود فيه بعد أن نبهنا إلى ضرورة كتابة العنوان على كل مظروف على حدة. حمل الكيس ووضعه على الميزان الضخم خلف العارضة الخشبية ثم رفعه بكلتا يديه وأغلقه وختمه وعاد إلى مقعده وانحنى على دفتر الإيصالات الصغير قائلا: «أربعة وستون رطلا من المطبوعات!».

في مساء اليوم التالي كنا مدعوين إلى العشاء ببيت أستاذي. وكان قد حدد الموعد بعد الامتحان مباشرة، دعاني أنا ومريد وأعضاء لجنة الامتحان وقال بابتسامة طيبة: «حفل صغير تكريما للدكتورة الصغيرة، لا تنسوا، سوف أنتظركم في ١٣ يوليو القادم».

لم ننس تاريخ اليوم، والأرجح أننا لن ننساه، دق جرس التلفون قبل الظهر، مكالمة خارجية.

- أحدثك من بيت خالك. فهيم ابن خالك استشهد في الشياح. وصل جثمانه وتم دفنه.

ويزداد وجه مريد امتقاعا ولا يقول شيئا. ويعيد السماعة إلى التلفون ونجلس في صمت، تلح التفاصيل الصغيرة فأرى الوجه الأسمر النحيل وآثار حرق قديم في الرقبة وعيني المراهق القلقتين وكتاب قواعد الإنجليزية الذي رحت أدرس له فيه عشية امتحان الثانوية العامة قبل عدة سنوات، أرى الموت يحملها في منديله الأسود الكبير، يعقده ويمضي، يغيب في البعيد. ولا أحد منا ينطق. هل ننزل إلى الشارع؟ هذه الغربة! هل نعود للبيت؟ هل نذهب إلى دعوة الأستاذ؟ تشتد الغربة أمام هذه المائدة المغطاة بمفرش أبيض، مريد

يجلس منكمشا وصامتا. وتصيبه قشعريرة فيعطيه أستاذي سترة يلبسها. يأكل قليلا ثم يدخل إلى الحمام ويتقيأ ثم نرحل.

ونعد للسفر. ووكالات الأنباء تحمل أخبارا يومية عن حرب تستعر في لبنان يصورها الإعلام الأمريكي على أنها صراع بين مسلمين ومسيحيين، وخبرا عن موقف غير مسبوق للحكومة المصرية التي ترفض في مؤتمر دولي إدانة إسرائيل. ونعد للسفر. أستلم النسخ المجلدة من رسالتي أقدمها إلى الجهات المقررة. ثم أذهب إلى إدارة الجامعة لأطلب ما يثبت أنني حصلت على الدكتوراه وأعرف أن الشهادة الرسمية، الورقة المقوّاة المكتوبة بخط منمق وجميل، لا تمنح إلا مرتين في العام. أقول للموظف المختص:

- أرجو إرسال الشهادة بالبريد على عنواني في القاهرة. لا، لن أحضر حفل التخرج، فقط أريد ذلك الخطاب الذي يفيد أنني حصلت على الدرجة العلمية وأن الشهادة الرسمية سوف تمنح في سبتمبر.

بعد يومين أذهب لاستلام الخطاب وأشكره وأمضي.

١٥

غادرنا أمهرست صباح الخامس من أغسطس ١٩٧٥، وكنا نحمل حقيبتي سفر والآلة الكاتبة الصغيرة التي كنت اشتريتها صباح ذلك السادس من أكتوبر. رافقنا بعض أصدقائنا إلى مطار برادلي بهارتفورد. ودّعناهم وركبنا الطائرة إلى نيويورك. وفي السابعة مساء أقلعت بنا طائرة «بان أمريكان» إلى روما. أمضينا أسبوعا في العاصمة الإيطالية ثم سافرنا إلى القاهرة التي وصلناها مساء الثاني عشر من أغسطس.

في الأسبوع نفسه وصل إلى القاهرة أيضا هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي لترتيب الأوضاع داخل البيت المصري.

حين غادرت القاهرة قبل عامين كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة مقطوعة منذ حرب ١٩٦٧. وكنت قد حصلت على تأشيرة الدخول من السفارة الإسبانية القائمة برعاية المصالح الأمريكية في مصر. كما اقتضى سفري وسفر بعض الطلاب الآخرين الحصول على

توقيعات بالموافقة، بالإضافة إلى التوقيعات المعتادة لـــرئيس القسم وعميد الكلية ومدير الجامعة، من وزارة التعليم العالي ووزارة الخارجية.

ولكن الزمان في عامين تغير. كان نيكسون قـــد أتـــى لزيارة مصر فقام المسئولون بطلاء واجهات البيـــوت التـــي سوف يمر عليها في طريقه إلى الإسكندرية (ساعتها كتبـــت لي صديقتي في مرارة ساخرة تقول: «وربما فكرت الحكومة في أن تسوقنا جماعات إلى الحمامات حتى نصبح جـــديرين بأن تقع عين السيد نيكسون علينا، أو لعلهم فكروا في طلائنا كما واجهات البيوت بالجير الأبيض!») وتبدي الكرم الشرقي في الحفاوة البالغة برجال الإدارة الأمريكيـــة الـــذين أخـــذوا يتوافدون على مصر، يعقدون الصفقات ويتمتعون بعـــروض لأشهر الراقصات على خلفية مـــن أهـــرام مصـــر. كانـــت الصداقة المصرية الأمريكية تتوطد وتســـير باتجـــاه الـــولاء المطلق، ولاء الحكومة المصرية طبعا!

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من وصولنا، تم توقيع ما سمي بالاتفاقية الثانية لفصل القوات، التي ينص بندها الأول علـــى

أن حكومتي مصر وإسرائيل قد اتفقتا على أن النزاع بينهما و في الشرق الأوسط لا يحل بالوسائل العسكرية.

وفي الحادي عشر من سبتمبر أغلقت إذاعة المقاومة الفلسطينية بالقاهرة حيث يعمل مريد. في الإعلام المصري راحت تبرز نغمة عن سلام عربي إسرائيلي، وإسرائيل تضرب الجنوب اللبناني، والحرب الأهلية اللبنانية تضطرم وتستعر. سافر مريد للعمل في إذاعة المقاومة ببيروت. وعدت لاستلام عملي كمدرسة في كلية الآداب جامعة عين شمس.

قال موظف الشئون الإدارية:

- يا دكتوره، أين الشهادة؟

أجبت:

- إن كنت تقصد الكرتونة فسيرسلونها لي بالبريد لأني لم أنتظر استلامها. معي هذا الخطاب من إدراة الجامعة، وأعتقد أنه يفي الغرض!

نظر لي الموظف مندهشا، سلمته الخطاب وذهبت.

رحت أتابع أخبار القصف اليومي بالعاصمة اللبنانية، كنت أحمل جنينا في بطني، أجهضت. صدر كتاب جديد

لمريد يضم كلماته في برنامج يومي درج على كتابته وإذاعته وكان اسم الكتاب «الأيام الصعبة». عاد مريد إلى القاهرة. واصل الكتابة وواصلت العمل في الجامعة. حملت ثانية. أعيد فتح الإذاعة ثم أغلقت مرة أخرى مساء الثامن عشر من نوفمبر ١٩٧٧، عشية زيارة السادات لإسرائيل. مساء اليوم التالي شاهدنا على شاشة التلفزيون مصافحة السادات لبيجن ولغولدا مائير واستمعنا إلى الفرقة الموسيقية العسكرية الإسرائيلية تعزف «الهاتكفاه» ونشيد مصر الوطني الذي لم يكن قد تغير بعد من «والله زمان يا سلاحي» إلى «بلادي بلادي». في الصباح التالي، وكان يوم عيد الأضحى، طرق بابنا خمسة من رجال الأمن، جاءوا لإلقاء القبض على مريد وترحيله من مصر. ودّعتُه وأنا أحمل طفلنا الصغيرة تميم، كان عمره خمسة أشهر. ورغم تميم، وشجرتي الجوافة اللتين زرعهما مريد في حديقة الدار – وأدهشتنا سرعة نموهما وإثمارهما – رغم ثقتي التي بلغت حد الإيمان بأن الأمور لن تستمر على ما هي عليه، فقد كنت أعرف أن الأيام القادمة هي فعلا أيام صعبة.